الفصل الثاني

ازدواجية اللغة: طبيعتها ومشكلاتها في سياق التعليم

محمد راجي الزغول(*)

تعريف الازدواجية اللغوية

تعتبر مشكلة الازدواجية في اللغة العربية من أهم المشكلات اللغوية التي تواجه الوطن العربي وبخاصة من النواحي الاجتماعية والنفسية والتربوية. ولطبيعة هذا الموضوع الحساسة من الناحيتين القومية والسياسية من جهة والدينية من جهة أخرى، فإنه لم يلقَ عناية موضوعية كافية، أو بحثا مستفيضاً في ضوء الدراسات اللغوية المعاصرة، خاصة التطورية والمقارنة منها. وهكذا يبقى الكثير مما كتب ردود فعلٍ آنيّة أملتها انتماءات ومصالح مختلفة أكثر مما أملاه البحث الموضوعي الجاد في العالم العربي. سأتناول في هذا البحث قضية الازدواجية بالتعريف، واربطها بالوضع اللغوي العربي، شارحاً أربعة أنماط للعربية تحدّث عنها الغربيون، وتبعهم العرب في الحديث عنها؛ ثم سأتناول فكرة الدعوة إلى العامية، مبيّناً ثلاث مراحل تاريخية هامة لتطورها. ومن ثم سأناقش هذا الوضع في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة، وفي سياق تعلم اللغة وتعليمها، لأخلص بنتائج واقتراحات. ونظراً لأن جذور المشكلة تكمن في الاهتمام الذي أبداه الغربيون بها، فسأورد في كثير من المواقع استشهادات مما قاله بعض مفكريهم في الجوانب المختلفة لهذه القضية.

(*) قسم اللغة الإنكليزية وآدابها، جامعة اليرموك في إربد بالمملكة الأردنية.

إن كلمة «ازدواجية» ترجمة للمصطلح الانجليزي Diglossia. يُعتَقد أن أول من تحدث عن هذه الظاهرة كان اللغوي الألماني كارل كرمباخر Krumbacher في كتاب له صدر عام ١٩٠٢، تطرَّق فيه إلى طبيعة هذه الظاهرة وأصولها وتطورها، وأشار بشكل خاص إلى اللغتين اليونانية والعربية، وخلص إلى نتائج تفسر كثيراً من التطورات المتأخرة لبعض الدعوات في العالم العربي، إذ اقترح على اليونانيين ترك «ازدواجيتهم الشرقية» واللحاق بالعالم الغربي، بتبني العامية لغة قومية. كذلك دعا العرب إلى ترك فصيح لسانهم وتبنّي إحدى اللهجات ـ مفضلاً المصرية ـ لغة قومية. لكن الرأي العام الشائع في أدب هذه الظاهرة اللغوية هو أن العالم الفرنسي وليم مارسيه[١] كان أول من نحت الاصطلاح بالفرنسية La diglossie وعرَّفه في مقالة تخص الازدواجية في العربية عام ١٩٣٠ بقوله: «هي التنافس بين لغة أدبية مكتوبة ولغة عامية شائعة للحديث». وبعد ثلاثة عقود من الزمان، وعلى جهة التحديد عام ١٩٥٩، وفي مقالة تُعدّ من أشهر ما كتب عن الموضوع ـ لأنه قلما تجد باحثاً في الازدواجية لم يرجع إليها ـ قدَّم اللغوي الأمريكي شارلز فيرجسون[٢] هذا الاصطلاح إلى الانجليزية، إذ بحث أربع حالات لغوية تتميز بهذه الظاهرة، وهي: العربية واليونانية والألمانية السويسرية، واللغة المهجّنة في هايتي. كما قدَّم فيرجسون تعريفه الواسع الانتشار لهذه الظاهرة:

«حالة لغوية ثابتة نسبياً، يوجد فيها فضلاً عن اللهجات الأساسية (التي ربما تضم نمطاً أو أنماطاً مختلفة باختلاف الأقاليم) نمط آخر في اللغة مختلف، عالي التصنيف (وفي غالب الأحيان أكثر تعقيداً من الناحية النحوية) فوقي المكانة، وهو آلة لكمية كبيرة ومحترمة من الأدب المكتوب لعصور خلت، أو لجماعة سالفة. ويتعلم الناس هذا النمط بطرق التعليم الرسمية، ويُستعمل لمعظم الأغراض الكتابية والمحادثات الرسمية، لكنه لا يُستعمل من قبل أي قطاع من قطاعات الجماعة المحلية للمخاطبة أو المحادثة العادية».

(١) Marçais, William: "La Diglossie Arabe", **L'Enseignement public**, Vol. 97, No.40 (1930).

(٢) Ferguson, Charles A.: "Diglossia", **Word**, Vol. 15(1959), 325-40.

دعا فيرجيسون هذا النمط «المرتفع» وهو الفصحى، وقارن استعماله «بالمنخفض» وهو النمط العامي، وأعطى نموذجه التالي لاستعمالات كل منهما لتوضيح الفروق المذكورة:

الحالة	عال	منخفض
١. الوعظ في المسجد (أو الكنيسة)	×	
٢. التعليمات للخدم والعمال والكتبة		×
٣. الرسائل الشخصية	×	
٤. الخطبة في مجلس الأمة، الحديث السياسي	×	
٥. محاضرات الجامعة	×	
٦. الحديث مع الأصدقاء والزملاء وأفراد العائلة		×
٧. إذاعة الأخبار	×	
٨. التمثيليات الاجتماعية في الإذاعة		×
٩. افتتاحية الصحف، أخبار الصحف والعناوين	×	
١٠. التعليق على الكاريكاتير		×
١١. الشعر	×	
١٢. الأدب الشعبي		×

ويمضي فيرجسون في المقالة نفسها ليتنبأ بما ستكون عليه الحالة اللغوية في اللغات الأربع المذكورة بعد القرنين القادمين، وعلى وجه تقديره عام ٢١٥٠. والجزء الخاص بالعربية جدير بالذكر هنا، إذ يفسر لنا بعض الاتجاهات والدعوات في العالم العربي: يتوقع فيرجسون أن يكون هناك تقدم بطيء نحو تطور مجموعة من الأنماط اللغوية يرتكز كل منها على إحدى العاميات مع مزيج من مفردات الفصحى. وهناك بناءً على توقعه ثلاثة أنماط رئيسة: أولها العربية المغربية، وترتكز على عامية الرباط أو تونس؛ وثانيها المصرية، وترتكز على عامية القاهرة؛ والثالثة ما أسماه المشرقية، وترتكز

على عامية بغداد. ويضيف فيرجسون مكملاً توقعاته أنه بناء على تطورات سياسية واقتصادية غير متوقعة، فلربما نشأ نمط جديد للعربية في سوريا، مرتكزاً على عامية دمشق، وآخر سوداني يرتكز على عامية أم درمان أو الخرطوم، أو أنماط أخرى على حد قوله.

ودعا فيرجسون في ختام مقالته المختصين لدراسة هذه الظاهرة بشكل أوسع. وقد تم ذلك بالفعل، وخاصة بين علماء اجتماع اللغة. يقول هيمز[٣] اللغوي الاجتماعي الأميركي تعليقاً على مقالة فيرجسون إن الازدواجية مثال ممتاز لتعايش نظامين غير متبادلي الفهم (ويقصد هنا الفصحى والعامية، وصعوبة فهم الفصحى على العوام) وترابط كل من هذه الأنظمة بمفاهيم وقيم مختلفة، وكمثال لضرورة الرجوع إلى الجماعة المحلية للتحكيم لتجنب أي تحريف أو تشويه قد ينشأ بحالة الاتصال. وكذلك تعرّض لهذه الظاهرة بالدرس كل من جمبيرز وفشمان[٤]؛ فقد أضاف جمبرز في أعماله الكثيرة ذات الصلة بهذه الظاهرة أن الازدواجية ليست حصراً في المجتمعات المتعددة اللغات، التي تعترف رسمياً بعدة لغات، ولا في المجتمعات التي تتكلم أنماطاً عامية وفصحى، ولكن أيضاً في المجتمعات التي تستخدم لهجات منفصلة، أو أساليب مختلفة، أو أي أنماط أخرى تخدم وظائف مختلفة. كذلك بحث النماذج الاجتماعية التي تحدد استعمال نمط دون آخر. أما فشمان فقد لخّص ما قدّمه لدراسة هذه الظاهرة بأن تناول استمرارية الازدواجية وتعطيلها على المستوى القومي والاجتماعي. وحاول ربط الازدواجية ببعض الاعتبارات النفسية وما يختص منها بثنائية اللغة Bilingualism بشكل رئيسي، ودرس نماذج من الجماعات التي تتميز بالازدواجية والثنائية، وبالازدواجية دون الثنائية، وبالثنائية دون الازدواجية، والجماعات التي لا تعاني من الازدواجية أو الثنائية. وقبل سنوات قليلة، تناول ألن كي[٥] تعريف الازدواجية بشكل مختلف إذ انتقد تعريف فيرجسون لها، ووصفه بأنه

(٣) Hymes, Dell: "Introduction to Social Structures and Speech Community", in: Hymes, Dell (ed.): **Language in Culture and Society**, New York, Harper and Row Publishers, 1964, 385-390.

(٤) Gumperz, John: "Types of Linguistics Communities", **Anthropological Linguistics**, Vol. 4, No.1 (1962), 28-40, and Fishman, Joshua: **The Sociology of Language: An Interdisciplinary Social Approach to Language in Society**, Rowly, MA, Newbury House, 1972.

(٥) Kaye, Alan S.: "Remarks on Diglossia in Arabic: Well Defined vs. ill Defined", **Linguistics**, Vol. 81(1972), 32-43.

«انطباعي». ونظر الى وضع الازدواجية كوضع لا يميل الى الاستقرار والثبات كما فهمه فيرجسون؛ كذلك فهم الفرق بين النمطين الأساسيين للعربية الفصحى والعامية بين نمط معرف define وهو العامية، وغامض التعريف ill defined وهو الفصحى. فالعامية في رأيه نمط معرف، لأن الطفل يتعلمها لغة أولى، أما الفصحى فإنها نظام غامض التعريف لأنها لا تكتسب لغة أولى، بل يتعلمها الطفل فيما بعد في المدرسة. وفي اعتقاده أنه لوجود تفاعل مستمر بين النظامين، لا يمكن أن نستنتج بأن الوضع الإزدواجي يميل إلى الثبات، بل على العكس هو متغير. وفي مقالة نشرت عام ١٩٩٣ حاول شيفمان[٦] أن يعيد نقاش قضية ثبات الوضع الازدواجي أو عدمه مبيناً أن هذا الوضع غير ثابت اطلاقاً، وذلك لسبب رئيس أسماه الخلل في ميزان القوى بين الأنماط المختلفة التي تشكل الوضع الازدواجي. إذ يؤدي هذا الخلل في ميزان القوى إلى التنقل من نمط الى آخر وفي النهاية إلى إحلال نمط محل نمط آخر. ومنذ دعوة فيرجسون للغويين لدراسة هذه الظاهرة عام ١٩٥٩ أضحت الدراسات لهذه الظاهرة، وبخاصة في الغرب، تتوالى وبشكل اصبح من الصعب حصرها لكثرتها. ففي دراسة بيبلوغرافية حديثة النشر نسبياً قام بها هدسون[٧] تمكن من حصر ما مجموعه «١٠٩٢» مادة علمية منشورة عن الازدواجية جلُّها في الانجليزية. ويشير هدسون في المقالة نفسها إلى أن أكثر من نصف هذه المواد العلمية تم نشره في العشر سنوات من ١٩٨٣ إلى ١٩٩٢.

مشكلات الازدواجية

لقد اعتُبر الوضع الازدواجي في أية لغة أنه يشكل عوائق مختلفة للناطقين بتلك اللغة؛ كما اعتبره الكثير من الباحثين عائقاً للتعليم وللتطور التربوي والاقتصادي والتماسك القومي. يقول الباحث سوتيرو بولص[٨] الذي تناول بالتفصيل الوضع القائم باليونان،

(٦) Shiffman, Harold: "The Balance of Power in Multiglossic Languages Implications for Language Shift", **International Journal of the Sociology of Language**, Vol.103 (1993), 115 - 148.

(٧) Hudson, Alan: "Dilgossia: A Billiographic Review", **Language in Society**, Vol.21, No.4 (1992),611 - 675.

(٨) Sotiropoulous, Dimitri: "Diglossia and the National Language Question in Modern Greece", **Linguistics**, Vol. 197 (1977), 5 - 31.

حيث كان هناك لوقت قصير تنازع بين الفصحى والعامية كلغة للبلاد، حسم عام ١٩٧٦ بعد أن اتخذت الحكومة اليونانية برئاسة كرامنلس قراراً رسمياً يقضي بإلغاء اليونانية الفصحى المسماه كذاريفوسا Katharevousa. واعتماد العامية اليونانية المسماه ديموتيكي Demotiki لغة رسمية للبلاد، في وصف انعكاسات الازدواجية اللغوية:

«... وان تكن الازدواجية، وبشكل موضوعي، أداة بارعة للضرورة، فإنها من وجهة النظر الاقتصادية والتماسك القومي وفعالية التعليم والاتصالات وأجهزة الإعلام لعائق. بالإضافة إلى ذلك، إذا اعتبرنا ان وظيفة اللغة ليست للاتصال وحسب؛ وحقيقة أن اللغة تخدم احتياجات الشخص والمجتمع العاطفية والمعرفية والنفسية، فان وجود الازدواجية في الجماعة اللغوية لذو آثار محدِّدة، بل معقدة لقوتها التعبيرية. الازدواجية رمز وتذكرة للصراع الاجتماعي ونقص التماسك الاجتماعي».

لقد تحدث عدد كبير من الباحثين عن المشكلات التي تورثها الازدواجية نفسياً واجتماعياً واقتصادياً وتربوياً. وبالنسبة للغة العربية، بالغ بعضهم وخاصة أصحاب الغايات والنيات المضمرة بانعكاسات الازدواجية على النفسية العربية والعقل العربي، إذ ربطها الكاتب اليهودي رفائيل باتاي[٩] في كتابه **العقل العربي** بالهامشية وانفصام الشخصية. ويخلص لفين[١٠] في فصل عن اللغة العربية والأدب الغربي في كتابه عن العقل العربي إلى عدد من الاستنتاجات الجائرة التي لا تخفي حقداً كميناً، إذ يربط بين اللغة العربية والكذب والاهتمام بالكم وتبرير العنف ... الخ.

ولابد لنا في هذا السياق أن نسوق ما أورده كاتب غربي في مقالة معروفة واسعة الاقتطاف عن اللغة العربية، وهو إيلي شوبي[١١] في مقالة بعنوان «تأثير اللغة العربية على نفسية العرب» يدّعي شوبي أن للغة العربية انعكاساتها على النفسية العربية من حيث ابتداع عالمين، عالم المثال وعالم الحقيقة، يمثل الأول منهما اللغة العربية الفصحى والثاني تمثله العامية. ويمضي شوبي في تعميماته ليقول أن الأفكار التي نعبر عنها العربية

(٩) Patai, Raphael: **The Arab Mind,** New York, Charles Cribners and Sons, 1973.
(١٠) Laffin, John: **The Arab Mind: A Need for Understanding,** London, Cassel, 1977.
(١١) Shouby, Eli: "The Influence of the Arabic Language on Psychology of the Arabs", **Middle East Journal** (Summer 1951).

غامضة وكلما زادت بعداً عن المحسوس كلما ازدادت صعوبة فهمها بدقة. ويضيف إلى أن العربية تبالغ بالتأكيد على الشكل على حساب المعنى، وهذا يبعث على التكرار وعلى الحرص لأن تُحشر الأفكار لتناسب الكلمات لا لأن تناسب الكلمات الأفكار. ومما يثير الاستغراب أن تقتبس هذه التعميمات الجائرة في كثير من الكتابات العربية دون تمحيص. يقول أبو سعدي في أطروحته للدكتوراه ودون مقدمات على سبيل المثال في الصفحة ٧٦[١٢] أن اللغة العربية الفصحى بصيغها الجامدة قد تركت أثرين نفسيين على الناطقين بها هما:

١. التركيز على الشكل وذلك على حساب المعنى الذي يؤدي إلى الغموض في التعبير مما يقود إلى الغموض في المواقف الحياتية.

٢. الغموض في الفكر الذي يتمثل بجمود القواعد النحوية واستخدام ألفاظ قديمة للتعبير عن معانٍ جديدة في الحضارة الحديثة.

ثم يعود الكاتب لاقتباس شوبي في الصفحة التالية. وفوق ذلك كله أنحى الغربيون باللائمة على العربية ووضعها الازدواجي معللين بهذا الوضع أسباب تأخر الأمة العربية وفقدانها لقوى الإبداع وسيأتي ذكر مهندس الري الانجليزي في مصر وحملته على العربية لاحقاً.

ويهمنا في هذا البحث بشكل رئيسي تأثير الازدواجية العربية على قضايا التعليم. وسأسوق في هذا الجزء بعض ما حصره عدد من الكتاب من تأثيرات. لقد ربط الكثير ممن كتبوا عن الوضع الازدواجي للعربية بين هذا الوضع وانتشار الأمية في الوطن العربي. وعدَّد هؤلاء السبب تلو الآخر مستندين إلى تقسيمات طبقية تعتمد المدخلات الاقتصادية تارة والمستويات الثقافية تارة أخرى لتبين صعوبة تعلم الطفل استخدام اللغة الفصحى أو حتى تعلم القراءة والكتابة باللغة الفصحى التي تختلف عن حديثه العامي. ومن أوسع مصادر الاقتباس بهذا الشأن فصل بعنوان «ما اللغة العربية التي تتولى الدولة تعليمها» كتبه طه حسين ضمن كتابه **مستقبل الثقافة في مصر** ينذر فيه بأنه إذا لم تتولّ الدولة

(١٢) Abou-Seida, Abdelrahman: "Diglossia in Egyptian Arabic: Prolegomena to a Pan-Arabic Sociolinguistic Study", (Ph.D. Dissertation, University of Texas at Austin, 1971).

بواسطة العلماء القادرين إصلاح وتسيير علوم العربية الفصحى فإنها صائرة إلى أن تصبح لغة دينية «يحسنها أو لا يحسنها رجال الدين وحدهم ويعجز عن فهمها وذوقها فضلاً عن اصطناعها واستعمالها غير هؤلاء السادة من الناس «ويمضي طه حسين ليقول بأن اللغة العربية في مصر» إن لم تكن أجنبية فهي قريبة من الأجنبية لا يتكلمها الناس في البيوت، ولا يتكلمها الناس في الشوارع ولا يتكلمها الناس في الأندية، ولا يتكلمها الناس في المدارس ولا يتكلمونها في الأزهر نفسه». وقد رأى طه حسين في الإصلاح اللغوي شرطاً أساسياً للتعليم كله وذلك لأنه «حين تعلم في لغة من من اللغات، لن تبلغ من التعليم شيئاً إذا لم تكن لغة هذا التعليم واضحة سهلة قريبة إلى العقول والقلوب». رأس هذا الإصلاح كما رآه طه حسين يكون بِقصر تعلم النحو على القدر الضروري.

وفي هذا السياق يقول إبراهيم السامرائي الذي يعتبره المتشددون اللغويون مغايراً لتيار طه حسين في كتابه **تنمية اللغة العربية في العصر الحديث**، (١٩٧٣).

«إن واقع العربية يشير إلى أنها مشكلة كبيرة ذلك أن هذه اللغة يراد لها أن تكون لغة العرب أينما كانوا، ثم أن تكون في مستويات ودرجات مختلفة ... ان من العوائق التي تحول بيننا وبين إدراك شيء من هذا الهدف هو أن هذه العربية ما زلنا نجهلها. يجهلها ابن الشارع كما يجهلها المتعلم المثقف وقد أكون مصيباً لو قلت يجهلها ذوو الاختصاصات المختلفة. وقد أكون غير مفرط لو قلت أن مدرّسي اللغة العربية وأساتذتها في محنة منها. ذلك أن طائفة كبيرة منهم لا تملك القدرة الوافية الكافية على الإعراب بفصيحة مليحة. ... ان العربية الفصيحة في عصرنا الحديث مشكلة صعبة ذلك بأننا شاعرون أبداً أن في لغتنا حاجة إلى أن تْيسُّر رسماً وبناءً ونحواً لكي تصبح لغة يباشرها المعربون فيتصرفون بها كلاماً وفكراً وكتابة. ... إننا معاشر العرب نجهل لغتنا ونجد في مباشرتها صعاباً كثيرة فلا يستطيع كثير من جمهرة المختصين ان يملك من هذه العربية القدر الذي يعينه على إيصال العلم والمعرفة إلى غيره بيسير».

ونتيجة لصعوبة تعلم اللغة العربية الفصحى ونحوها كما يدعي من كتب في هذا الموضوع، فقد تبع ذلك صعوبة فهم العربية الفصحى لدى مستخدميها، وتبع ذلك وزرٌ تفشي العامية في الوطن العربي. في دراسة لسامي الرباع نشرتها مجلة أميركية في

اللغويات الانثروبولوجية Anthropological Linguistics خُصص عددها لقضايا في اللغويات العربية الاجتماعية، يورد الرباع نتائج تقويم كفاءة الطلبة في استخدام الفصحى، ودون وصف دقيق لمقاييسه المستخدمة او تضمينها ملحقا في دراسته، يستنتج بأن الطلبة غير كفوئين باللغة ويسجلون عدداً كبيراً من الأخطاء الإملائية والصرفية والنحوية ومن اختيار الكلمات ويعزو ذلك لبعد الشقة بين الفصحى والعامية. ويقفز بعدها إلى الاستنتاج بأن انفصام الفصحى عن العامية مسؤول عن النسبة العالية للأمية في الوطن العربي ومسؤول أيضاً عن ضعف مستوى الأداء لغوياً في الصفوف.

وفي دراسة حديثة نشرت عام ١٩٩٦ في مجلة غربية، يعيد صلاح عياري[١٣] الكره ليربط بين الوضع الازدواجي للغة العربية وانتشار الأمية واصفاً لما لهذا الوضع الازدواجي من أثر سلبي على تعلم الطفل لمهارات القراءة والكتابة وعلى تحصيله العلمي بشكل عام.

ولابد من التنويه هنا أن الربط بين الازدواجية وانتشار الأمية قد أورده فيرجسون في مقالته عن الازدواجية المشار إليها آنفاً. إذ أكد أن الازدواجية تبدو مقبولة في مجتمعاتها ولا تعتبر مشكلة حتى يبرز أحد ثلاثة اتجاهات أولها: انتشار محو الأمية (لأسباب اقتصادية أو فكرية أو غيرها) .. ذلك لأنه أشار في المقالة نفسها أن أحد أسباب وجود الازدواجية هو حصر القراءة والكتابة بالنخبة. وثانيها: الاتجاه نحو مزيد من الاتصالات بين الأقاليم والطبقات وثالثها: الاتجاه نحو تشكيل نمط لغوي موحد يمثل الاستقلال والسيادة.

هل يَصدق هذا على العربية؟ إن كان الحال كذلك فكيف الطريق لتجنب تلك العوائق؟ هل للعربية وضع خاص يختلف عن غيرها من اللغات؟ سأحاول الإجابة عن هذه الأسئلة بعد ان أحدد المشكلة في سياقها العربي. لذلك سأبدأ ببحث أربعة أنماط للغة العربية، يعرف منها العرب الفصحى والعامية؛ أما النمطان الآخران فقد أبرزهما كتّاب غربيون أو عرب تعلموا في الغرب وفي أميركا خاصة. ولو وضعنا الأنماط الأربعة على خط مستقيم

(١٣) Ayari, Salah: "Diglossia and Illiteracy in the Arab World", **Language, Culture and Curriculum,** Vol. 9, No. 3 (1996), 243-53.

لوجدنا الفصحى على طرفه الأيمن، والعامية على طرفه الأيسر، وقارب كل من النمطين الجديدين أحد الطرفين. والأنماط الأربعة هي العربية الفصحى، العربية الحديثة، عربية المثقفين والعامية. سأبحث تلك الأنماط مبيناً بعض الاتجاهات نحو الأنماط، مناقشاً ومبيّناً بعض آراء الدارسين الغربيين لظاهرة الازدواجية في اللغة العربية.

أنماط اللغة العربية

١. **العربية الفصحى**: وهي ما يسميه الغربيون العربية الكلاسيكية Classical Arabic أو العربية الفصحى Fusha Arabic أو أحياناً العربية الأدبية Literary Arabic وما سماه فيرجسون بالنمط العالي أو «المرتفع» ورمز له بالحرف (H).

الفصحى بالدرجة الأولى هي لغة القرآن ولغة الإسلام، وهي الوسط الذي انتشر به الإسلام ديناً وثقافة. والعلاقة بين العربية الفصحى والإسلام علاقة عضوية حميمة. قال تعالى: ﴿إنا أنزلناه قرآناً عربيا﴾ وقال ﴿بلسان عربي مبين﴾. ولا غرو أن يكون هذا السبب الأول في تمسُّك العرب على اختلاف مآربهم وأهوائهم عبر التاريخ باللغة العربية الفصحى، ورغم كل ما بذله الغازون والمستعمرون عبر التاريخ العربي الإسلامي من جهد في سبيل تحويرها أو تحريفها أو إبدالها بلغة أخرى. ولابد من نظرة عميقة في هذه العلاقة بين العربية والإسلام، التي تنعكس في آراء المسلمين في بلاد منها الصين وبورما وأفغانستان ودول الاتحاد السوفياتي آنفاً وغرب افريقيا، وفي آراء ومعتقدات العرب منهم خاصة، حتى ندرك قيمة هذه اللغة ومدى تمسك المسلمين بها. وقد حاول عدد من المفكرين المسلمين أن يشرحوا أو يبينوا هذه العلاقة وللفكر الغربي بالذات. فعلى سبيل المثال يقول الشيخ عناية الله[١٤]، الأستاذ في جامعة البنجاب، في مقالة نشرتها مجلة Muslim World في توضيح هذه العلاقة:

«العربية ذات أهمية عظمى لكونها اللغة الدينية للمسلمين الذين يكوّنون خمس الجنس البشري ... ويتم التأكيد في القرآن الكريم مراراً وتكراراً على حقيقة أن كلمة الله قد أوحي

(١٤) Inayatullah, S.: "Arabic as the Religious Language of the Moslem", **Muslim World**, Vol. 29, No. 3(1949), 241-245.

بها باللسان العربي. ومن طرف العالم الإسلامي إلى الطرف الآخر، ومهما كانت لغة المسلم، سواء كانت بربرية أم حوساوية أم بشتو أم فارسية أم تركية أم جاوية أم ملاوية، فإن الصلوات تقام خمس مرات بالعربية يومياً. أما الكلمات الأساسية في العقيدة الإسلامية ـ لا إله إلا الله محمد رسول الله ـ فإنها تهمس في أذن الوليد، ومن بين أولى الجمل التي يعلَّم الطفل أن ينطق بها، وينبغي أن تكون هي الكلمات الأخيرة على شفاه الميت».

ويستطرد الشيخ عناية الله،

«يكون فهم الإسلام ناقصاً بدون معرفة العربية، ولأي فهم للأفكار المؤثرة بطريقة حياة المسلمين وعقائدهم التي يعتبرونها أكثر الأشياء قدسية، ومباديء دينهم وأخلاقهم التي ينشأون عليها، علينا أن نعود للعربية فهي الأداة الأصلية لكل العلوم الدينية في الإسلام».

من هنا نبع الاعتقاد بقدسية اللغة العربية بشكلها الفصيح، وقد أثر هذا الاعتقاد تأثيراً واضحاً باتجاهات العرب نحو لغتهم. يقول أنور شحنة[١٥] في كتابه المعروف في الغرب عن اللغة العربية وأهميتها في التاريخ واصفاً أثر هذا الاعتقاد:

«إن الإيمان بقدسية القرآن فيما يتعلق بمعانيه وكلماته، وحتى أدق تفصيلاته، أصبحت تشمل وتحتوي اللغة العربية بكليتها. إن مسألة كون العربية أعطية الله ـ وبناء عليه فهي فوق اللغات جميعاً بجمالها وثروتها ونبلها ـ قد استحوذت بعمق اهتمام وتفكير فقهاء اللغة ومشرعي الإسلام والفلاسفة والفقهاء وغيرهم».

أما المستشرق الألماني يوهان فك فيقول في بداية كتابه **العربية: دراسات في اللغة واللهجات والأساليب** واصفاً هذه العلاقة وذاكراً ما يتصل بالكثير من موضوع هذا البحث.

«لم يحدث حدث في تاريخ اللغة العربية أبعد أثراً في تقرير مصيرها من ظهور

(١٥) Chejne, Anwar: **The Arabic Language: Its Role in History,** Minneapolis, University of Minnesota Press, 1969.

الإسلام. ففي ذلك العهد قبل أكثر من ١٣٠٠ عام عندما رتل محمد ﷺ القرآن على بني وطنه بلسان عربي مبين، تأكدت رابطة وثيقة بين لغته والدين الجديد، كانت ذات دلالة عظيمة النتائج في مستقبل هذه اللغة. ولا ينحصر هذا في الدور الذي لعبته العربية منذ ذلك الوقت في العالم الإسلامي كافة، من حيث كونها لغة الدين والحضارة على الإطلاق، بل يتجاوزه بمقدار أعظم إلى النتائج التي تركتها غزوات الفتح على أيدي البدو تحت راية الإسلام في لغتهم. ... بيد أن مقام العربية باعتبارها اللغة المعتمدة للعلم والأدب قد بقي حتى هذا العصر الحديث ثابت الأركان، وطيد الدعائم ولم يجرؤ إلا بعض دعاة الإصلاح الإسلاميين على توجيه نقدهم اليوم - دون جدوى - إلى عقيدة اللغة العربية الفصحى».

ويمضي يوهان فك متحدثاً عن هذه العقيدة:

«هذه العقيدة التي جعلت من العربية الفصحى نموذجاً مفروضاً، ومثلاً أعلى يقتفيه كل كاتب عربي، جعلت من العسير بمكان ان يحصل على صورة واضحة للنمو والتطور الذي أصاب العربية، ككل لغة حية في مدة تربو على ثلاثمائة وألف عام. ولقد تكفلت القواعد التي وضعها النحاة العرب في جهد لا يعرف الكلل، وتضحية جديرة بالإعجاب، بعرض اللغة الفصحى وتصويرها في جميع مظاهرها، من ناحية الأصوات والصيغ وتركيب الجمل ومعاني المفردات على صورة محيطة شاملة بحيث بلغت القواعد الأساسية عندهم مستوى من الكمال لا يسمح بزيادة لمستزيد».

إن ما لا يفهمه الغربيون هي هذه العلاقة العضوية الحميمة بين الإسلام والعربية، وما لها من انعكاسات على تفكير المسلمين، ومنزلة هذه اللغة بأنفسهم. وعلاوة على ذلك كله ما تركته هذه اللغة من آثار على استمرار الخط الحضاري المتماسك للعرب والمسلمين عبر التاريخ. فبالإضافة إلى كونها لغة الإسلام، فقد كانت اللغة التي سُجلت بها الحضارة العربية الإسلامية وحُفظت. ولا نستطيع أن نعطي هذه النقطة حق قدرها إلا إذا أمعنا التفكير فيها، ووضعنا الفرضيات المختلفة فيما لو كان الحال غير ذلك. دعني هنا أقتبس بعض ما قاله المستشرق كاشيا[١٦] في تبيان توضيح هذا الأمر. يقول كاشيا:

(١٦) Cachia, P.J.: "The Use of the Colloquial in Modern Arabic Literature", **Journal of the American Oriental Society**, Vol. 87, No. 1 (1976).

«فوق ذلك كله فإن الفصحى هي مفتاح تلك الكنوز الضخمة من الماضي ... ثباتها لم توازه أية لغة. وفي هذا اليوم يستطيع أي عربي في المرحلة الثانوية من تعليمه، إن كان مهتماً وقادراً على بذل قليل من الجهد، ان يعبر إلى (ويكون في متناوله) السجل الكامل للألف وثلاثمائة عام الماضية».

هل يستطيع الانجليزي أو الفرنسي أو الإسباني عمل ذلك؟ هل يستطيع التركي أو الايطالي عمل ذلك؟ هل يستطيع أي شاب من تلك الجنسيات أن يقرأ تراث أمته كما كتب لفترة ما قبل ألف عام مثلاً؟ وحتى خمسمائة عام؟ تتمنى الأمم أن يكون أبناؤها قادرين على دراسة تراثها لهذه الفترة الزمنية. ان الانجليزي - على سبيل المثال - لا يستطيع أن يقرأ أي شيء من تراثه بشكله الأصلي مما يزيد تاريخه على خمسمائة عام؛ وحتى ذلك من الصعوبة بمكان. أما ما قبل الخمسمائة عام فالانجليزي يدرس في الانجليزية الوسطى Middle English خليطاً من الفرنسية في المقام الأول وما تبقى من الكلمات الجرمانية في لغة أقصيت لقرون عن معترك الحياة بكل الجوانب الرسميه. أما ما قبل ذلك أي ما قبل الغزو النورماندي عام ١٠٦٦ أي الانجليزية القديمة Old English فلا يقرأها أو يفهمها إلا متخصص بل لغوي متخصص ولا يتجاوز عدد هؤلاء عدد أصابع اليد الواحدة في الدولة كاملة. إننا لن نستطيع إدراك أهمية ذلك إلا إذا أدركنا قيمة الاستمرارية الحضارية على المستوى الإنساني وبشكل شامل.

بالإضافة إلى هذه العلاقة مع الإسلام فإن علاقة العربية بالقومية العربية والوحدة العربية ليست أقل من ذلك بمكان؛ فهي عماد القومية العربية، وأحد أهم مكوناتها، كما أوضح ذلك عدد كبير من كتاب العالم العربي وأدبائه، ومن بينهم ساطع الحصري في معظم كتاباته في هذا الميدان. كذلك ما زالت العربية بشكلها الفصيح أكبر قوة موِّحدة، في عالم عربي تتنازعه قوى التفتت، بعد الإسلام. وهنا أود أن أقتبس بعض ما قاله الأستاذ السابق في الجامعة الأميركية في بيروت ريتشارد يوركي [١٧] في مقدمة لمحاضرة ألقاها في قاعدة لاكلاند الجوية الأميركية، بمجموعة من العسكريين الأميركيين الذين يُدَرَّبون مبعوثي بعض الجيوش العربية في أميركا. يقول يوركي:

(١٧) Yorkey, Richard: "Practical EFL Techniques for Teaching Arabic Speaking Students", in: Alatis, J. and R. Crymes (eds.): **The Human Factors in ESL**, Washington, DC, TESOL, 1971.

«وعلى اختلاف تلك الدول وتشعبها، هناك قوة موِّحدة عظيمة واحدة: العربية الفصحى؛ هذا النمط ضمن العربية الذي تحمَّل وثَبَتَ لألف وخمسمائة عام خلت والذي يعتبر لغة القرآن المقدسة، ويحترم تراثه الأدبي الهائل. بشكل رئيسي، لم تتغير هذه النوعية من العربية منذ عهد محمد؛ وهي تراث عام يوحِّد جميع العرب: ذلك العربي الفرنسيّ الثقافة في المغرب، وذلك الكاتب الانجليزي التعليم في فلسطين، وذلك البدوي الذي ما زال متنقلاً في الحجاز، جميعهم يتقاسمون احتراماً شبه اسطوري لفصاحة ومرونة العربية، وبشكل خاص ما دعاه المستشرق البريطاني حب «لغة الأدب الثمينة، والمزينة بخيال غالباً ما يكون ساحراً ومترامي الأطراف».

بالرغم من تلك الوظائف التي تؤديها، وأدّتها، العربية الفصحى، إلا أنها وصفت وتوصف من قبل أبنائها أحياناً وأعدائها أحياناً أخرى بالجمود والاصطناعية والصعوبة المتناهية، خاصة من قبل الداعين إلى العامية. كذلك يعتبرها عدد من الباحثين لغة «غير طبيعية» لأنه ليس هنا ك من يتعلمها لغة أولى، بل يتعلمها الطفل لغة ثانية في المدرسة. وهذا الكلام، ولا شك، نابع عن عدم دراية بحقيقة قرب اللهجات من الفصحى وأن الكثير من اللغة العربية الفصحى يتعلمه الطفل أثناء اكتسابه لعاميته. أما صعوبتها وصعوبة تعلُّمها فيتذرع الداعون لذلك بصعوبة نحوها الذي كتب قبل ما يقارب ألف عام، وقلما تغيّر بعد ذلك. بالرغم من ذلك فإنه يشهد لها كواحدة من أغنى، إن لم تكن أغنى، لغات العالم بمفرداتها. ورغم أن فيرجسون، في مقالة ثانية عما دعاه خرافات عن اللغة العربية، يدرج هذه كإحدى الخرافات، إلا انه يدعمها كحقيقة بقوله إن ذلك ناتج عن الاستمرار الطويل في استعمال الفصحى، ودوام اثرائها من اللهجات وطرق النحت الأخرى.

٢. العامية أو المحكية أو الدارجة او اللهجه: هو النمط الذي يسميه الباحثون الغربيون العربية الدارجة Colloquial Arabic أو العربية المحكية Spoken Arabic أو عربية اللهجة Dialect وأسماه فيرجسون النمط المنخفض ورمز له بالحرف(L).

هو النمط الذي يكتسبه العربي بصورة طبيعية كلغة أولى في مختلف أصقاع الوطن العربي أولاً، وهو النمط الذي يختلف ويتمايز من منطقة لأخرى ومن قطر لآخر، ومن فئة لأخرى، يتمايز بأصواته وبكلماته وبقواعده. إنه النمط الذي يستخدمه العربي في حديثه

اليومي العادي لزوجته وأطفاله وإخوانه وأخواته ومواطنيه، هو النمط الذي يُغنّى به ويهمس به ويشتم به. ويُنظم به الشعر الغنائي والنبطي والأمثال الشعبية والتراثية والفولكلورية وحجم هائل من الأدب الشعبي ممثلاً بالدراما الاجتماعية في المذياع والمسلسلات التليفزيونية والأفلام السينمائية. إنه النمط الذي لا يجيد عدد كبير من الناطقين بالعربية غيره. إنه اللهجة والدارجة والمحكية. إنه النمط الذي ازدهر بانتشار الأمية وغياب التعليم وتطور متجهاً نحو التبسيط والبعد عن أي تعقيدات في الصوت والنطق والصرف والنحو واختيار الكلمة. في الكثير من الأبحاث المنشورة عن العربية، هناك تركيز على الفكرة القائلة بأن اللهجات العامية تطورت عن الفصحى، بعد اتساع رقعة الدولة العربية الإسلامية، واتصال الشعوب العربية بشعوب أخرى بالإضافة إلى توزيعهم الجغرافي. لا داعي هنا لمناقشة هذا الرأي، لكن هناك الكثير من الدلائل التي تشير إلى ان اللهجات العربية قديمة قدم اللغة العربية نفسها، وما الفصحى مقارنة بتلك اللهجات إلا لغة أدبية مشتركة، كتب بها الشاعر الشمالي والجنوبي والشرقي والغربي، على اختلاف لهجاتهم المحلية تبعاً لاختلاف لهجات قبائلهم.

كذلك كانت هذه اللغة الأدبية هي أداة التفاهم في اللقاءات والأسواق الأدبية. يخلص الدكتور محمود حجازي في كتابه **اللغة العربية عبر القرون** إلى نتيجة أنه انطلاقاً من وجود هذه اللغة الأدبية فإنه «من الطبيعي أن يكون القرآن الكريم بلسان عربي مبين» وأن لا يكون محلياً في التعبير بلهجة ما، بينما الإسلام دعوة إلى تجاوز المحلية القبلية إلى أفق عالمي أرحب. وقد اعتبر عدد من الباحثين أن هذه اللغة الأدبية هي لهجة قريش. وقد تبنى من بين المحدثين الدكتور صبحي الصالح في كتابه **دراسات في فقه اللغة** وجهة النظر هذه ودافع عنها. بالرغم من ذلك فإن اللغويين العرب لم يُبدوا اهتماماً باللهجات ودراستها؛ ومردّ ذلك غلبة التشابه بين هذه اللهجات من جهة، وبينها وبين اللغة الأدبية من جهة أخرى، وسهولة التفاهم، ووجود ما يسمى بالنظرية اللغوية الحديثة، «الفهمية المتبادلة» Mutual intelligibility بين هذه اللهجات واللغة الأدبية. بالرغم من عدم الاهتمام الفائق ذلك، فإن هناك إشارات للمزايا البارزة لكل من هذه اللهجات واختلاف بعضها عن بعض، أورد الكثير منها ابن جني في **الخصائص**. ومن الطبيعي أن يكون التركيز على المزايا البارزة، وخاصة في حقل الأصوات؛ وهو حقل يثير الاهتمام والملاحظة. وجملته المشهورة

تلخص بعض الخصائص البارزة لتلك اللهجات حين قارنها بلهجة قريش «فقد ارتفعت قريش في الفصاحة عن عنعنة تميم، وكشكشة ربيعة، وكسكسة هوازن، وتضجع قيس، وعجرفية ضبة، وتلتلة بهراء» كما ورد المزيد منها في **المزهر** كالفخفخة في لغة هذيل، والعجعجة في لغة قضاعة، وشنشنة اليمن، ولخلخانية أعراب عمّان، وطمطمانية حمير ... الخ.

لكنه باتساع رقعة الدولة العربية الإسلامية، ومخالطة الأعاجم، والاتصال بلغات مختلفة ومتعددة الأصول والفروع، أخذت الفوارق تزداد بين تلك اللهجات من جهة، وبينها كمجموعة وبين الفصحى من الجهة الأخرى. وبالرغم من اتساع الفوارق، إلا أن انتشار الفصحى لم يتوقف؛ إذ كانت هي الأساس، وأصبحت لغة العلم والسياسة والإبداع والتأليف والترجمة فيما بعد. ثم أخذت في الركود في العصور المتأخرة، حتى كان الحكم العثماني ومحاولات التتريك، ثم الاحتلال الفرنسي ومحاولات الاحتواء والضم، والاحتلال الانجليزي ومحاولات التجزئة. وهكذا زاد اتساع الشقة بين اللهجات والفصحى بزيادة استعمال اللهجات، وقلة استعمال الفصحى؛ حتى وصَف بعضهم الفصحى بأنها لغة ثانية، وأصبح الاعتقاد الشائع أن الفهم المتبادل بين اللهجات من جهة والفصحى من جهة أخرى ضعيف.

ينظر العربي بشكل عام للهجته بالنسبة للفصحى على أنها ليست ناقصة وحسب، بل انه تشويه للّغة المقدسة، لغة الفصاحة والأدب. وقد وُصفت العاميات بأقذع الألفاظ من قبل الأدباء والكتّاب العرب، فهي «مصاحبة للجهل والسوقية»، كما قال زكي عبدالملك [١٨]، «لغة السكارى والخدم ... فوضوية ولا قواعد لها»، كما يقول مازن مبارك[١٩]، «علامة للجهل والامبريالية»، كما يقول علي ناصيف [٢٠]، «لا تستحق أن تسمى لغة، ولا تلائم أهداف الحياة الثقافية»، كما يقول طه حسين، «ينشرها ويحبذها الأميون»، كما يقول مصطفى فهمي[٢١]... الخ. وبعض هذه الأوصاف مبالغة في الاتهام وتنقصه

(١٨) Abdel-Malek, Zaki: "The Influence of Diglossia on the Novels of Yusif Al-Sibawi". **Journal of Arabic Literature** (1972). 132-141.

(١٩) مبارك، مازن: **نحو وعي لغوي**. بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٥.

(٢٠) ناصيف، علي: **من قضايا اللغة والنحو**، القاهرة، [د.ن.]، ١٩٥٧.

(٢١) فهمي، مصطفى: **النظرية العامة للقومية العربية**، الاسكندرية، منشأة المعارف، ١٩٦٦.

العلمية؛ فللعامية قواعد، من الممكن تحديدها إن كان ذلك ذا جدوى؛ وهي أميل إلى التبسيط في النحو، إذ تُلغى الحركات وتقلّ الأوزان والتمييزات؛ ولكن هناك أسساً أمتن من ذلك للحكم على العامية وتفضيل الفصحى. وبالرغم من هذه الاتجاهات السلبية نحو العامية في العالم العربي، فإن العامية تقوم بوظائف جديدة في عالمنا، ربما تستمر لردهة من الزمن، وذلك لارتفاع نسبة الأمية. يقول صالح الطعمة واصفاً هذه الوظائف:

«إن تطور أشكال جديدة من الأدب والدراما، والاستعمال المكثف لوسائل الإعلام، قد زود العامية بوظائف مهمة في بعض الحالات، كما في الفنون المحلية: كالأغاني، والسينما، فإنها تخدم كلغة أساسية. وفي أشياء أخرى، كالدراما والقصص، فقد أخذ استعمال العامية يزداد ويركز عليه، وخاصة في الأعمال الموجهة للمشكلات الاجتماعية».

لا شك في أن العامية تميل إلى التبسيط، وخاصة في القواعد؛ إذ على سبيل المثال تختفي صيغة المثنى تقريباً، وينقص عدد الضمائر، وتختفي معظم أوزان الجمع، وصيغ الأفعال، وكذلك تختفي حركات الإعراب ... الخ. لكن هذا التبسيط هو ولا شك في كثير من الاحيان على حساب المرونة في القدرة على التعبير، ويتناسب طردياً مع تضييق الآفاق لا توسيعها. كذلك فإن العامية لازالت قليلة الاستعمال في التعبير عن الأمور الثقافية والفكرية والفلسفية؛ وعلى المتكلم في هذه المواضيع ان يعود إلى الفصحى ليمزجها بتراكيب العامية، إن أراد التعبير عما يقول بشيء من الدقة.

هناك بين هذين النمطين الفصحى والعامية، نمطان آخران من ابتداع دارسي العربية والمهتمين بالظواهر اللغوية في الغرب؛ وهما ما يسميان بعربية المثقفين Educated Arabic والعربية الحديثة Modern Standard Arabic, M.S.A.

٣. عربية المثقفين Educated Arabic عربية المثقفين اسم جديد لنماذج العاميات الإقليمية، وداخل الإقليم الواحد ممزوجة مع الفصحى في كلام المتعلمين من إقليم عربي واحد، أو من أقطار عربية مختلفة حينما يجتمعون، وفي مقالة حديثة أسماه عبدالرحيم يوسي[٢٢] في حديثه عن المغرب بعربية المغرب الوسطى Middle Moroccan Arabic. وقد

(٢٢) Youssi, Abderrahim: "The Moroccan Triglossia: Facts and Implications". **International Journal of the Sociology of Language** (1995).

قام بدراسة تحليلية لهذا النمط عدة باحثين، أخص بالذكر منهم ثلاث دراسات قام بها حاييم بلانك[٢٣] عندما حلل كلام أربعة من الطلبة العرب القادمين إلى أميركا ؛ قاسم شعبان[٢٤] الذي حلل كلام ستة من الطلبة العرب (لبنانيان، وسعودي، وعراقي، وعماني، وتونسي)؛ ومحمد زغول[٢٥] الذي حلل كلام عشرة من الطلبة العرب (سعودي، ومصريان، وعراقي، وجزائري، وأردنيان، وسوداني، وعماني، ومغربي).

اتفقت نتائج هذه الدراسات الثلاث على ان ترتيب الكلام يبقى عامياً؛ كذلك يبقى النحو والصرف عامياً. ولكن هناك ميلاً لاختيار الألفاظ من الفصحى؛ كما أن هناك ميلاً لاستعمال أصوات الفحصى، وخاصة الصحيحة منها. لكن هناك انتقالاً للاصطلاح الأجنبي في كثير من الأحيان. إن هذا النمط خليط من العامية وبعض جوانب الفصحى، لكنه يبعد عن الفصحى كثيراً. يقول بلانك مثلاً في ختام دراسته:

«انه الاستثناء وليس القاعدة أن تجد أي كلام متواصل في أي من الأنماط المشار إليها (الفصحى أو العامية)؛ إذ يميل المتكلم إلى التنقل من نمط لآخر، وفي داخل الجملة الواحدة».

ويستنتج شعبان: «تبقى عربية المثقفين بغالبيتها تحت سيطرة العاميات وخصائصها، خاصة في مجالي الأصوات والقواعد والركون إلى الفصحى يعتمد على الموضوع المثار، وبلد المتكلم، ومعرفته باللهجات الأخرى»[٢٦]. وقد أورد زغول نتائج مشابهة.

---

(٢٣) Blanc, Haim: "Stylistic Variation in Spoken Arabic: A Sample of Interdialectal Conversation", in: Ferguson, Charles (ed.): **Contributions to Arabic Linguistics**, Cambridge, Harvard University Press,1960.

(٢٤) Shaaban, Kassim: "Code-Switching in the Speech of Educated Arabs", **Journal of the Linguistic Association of the Southwest**, Vol.3, No. 1 (1978), 7-19.

(٢٥) Zughoul, M. R. : "Diglossia in Arabic: Investigating Solutions", **Anthropological Linguistics**,Vol. 22, No. 5 (1980), 201-17.

(٢٦) Shaaban: 1978, op. cit.

٤. العربية الحديثة أو ما يسمى في الغرب Modern Standard Arabic, M.S.A. أو Neo-Classical Arabic

لقد تطور هذا النمط من العربية بنمو الصحافة وتطورها وانتشار وسائل الإعلام؛ ويقصد به تلك النوعية من العربية التي تكتب بها الصحف، وتذاع بها نشرات الأخبار والبرامج الثقافية في الإذاعة والتلفاز. يختلف هذا النمط قليلاً عن الفصحى، وما هو إلا تبسيط للفصحى من بعض الجوانب، وذلك ليكون الكلام مفهوماً لأي عربي يجيد القراءة والكتابة. وهذا كذلك ما سماه الأدباء العرب قبل حين «لغة الجرايد». للمثقف العربي ليست هناك فروق واضحة، إذ ما تزال أصوات الفصحى نفسها تستعمل، وكذلك قواعد النحو والصرف نفسها. يتميز هذا النمط بالميل إلى استخدام الشائع من الألفاظ والبعد عن الاغراب. ويتميز كذلك بتأثره البالغ باللغات الأجنبية وبخاصة اللغتين الفرنسية والانجليزية التي يترجم عنهما الكثير للصحافة والتلفزة والإذاعة. يقول إبراهيم السامرائي، وهو ممن يرصدون هذا النمط ويتناولونه بالتحليل والمقارنة مع الفصحى:

«وإذا عدنا إلى عربيتنا الحديثة وجدناها تزخر بمئات الألفاظ الجديدة المولدة والمعربة وقد أخذت طريقها إلى الاستعمال وصارت مخصصة مقيدة بنوع خاص في المعنى غير ان اللغويين مع ذلك ما زالوا مترددين في عد هذا الجديد من الفصيح».

وقد شملت قائمة الألفاظ الجديدة في العربية الحديثة كلمات أصلها أعجمي، وكلمات عربية تم نحتها لتؤدي معانٍ جديدة. يحصر السامرائي من الفئة الأولى كلمات الإمبريالية والبرجوازية والديمقراطية والديماكوجية والكولونيالية ومن الفئة الثانية الفوضوية والعميل/ عملاء والرجعية والرأسمالية والثورية والجمهورية والتقدمية والانتهازية والانهزامية والانتاجية. كذلك يبين هذا النمط بما أسماه اللغويون في الانجليزية Calques وهي تعابير مترجمة إلى العربية بحرفيتها من الانجليزية أو الفرنسية. وقد رصد السامرائي في كتابه تنمية اللغة العربية في العصر الحديث عدداً كبيراً من إعداد هذه العبارات المتزايدة يوماً عن يوم في العربية، ومن أمثلة ذلك التعابير: يمثل الرأي العام، ويسهر على المصلحة العامة، وذر الرماد في العيون، وقتل الوقت، ويلعب دوره، ودوره، وعلى قدم المساواة، وحجر عثره، ولعب ورقته الأخيرة، ويلعب بالنار، ويصطاد في الماء

العكر، وتوترت العلاقات، والضحكة الصفراء، وكرّس حياته، والضرورة الملحة، ووضع النقاط على الحروف، والأوساط المطلعة، والدوائر العليا، ويسمح الرأي العام، ومؤتمر المائدة المستديرة، والأكثرية الساحقة، وأعمال الكاتب الكاملة، ويلقي ضوءاً على هذه المسألة، والمعطيات، والشخصية البارزة ...الخ.

إن مفهوم ما يسمى بالعربية الحديثة غريب عن العالم العربي؛ والكل يفترض ان هذا النمط هو الفصحى بعينها. ومن غير المتخصصين الذين تلقوا تعليمهم في بريطانيا أو أميركا، هناك القليل ممن يعلمون بوجود هذا النمط، إن وجد فعلاً. بالرغم من ذلك فإن بعض الباحثين قد بالغ في تقدير هذا النمط خطوة نحو تحديث العربية وتسهيلها. وآراء الباحث حارسلوف ستيتكيفتيش(٢٧) التي ضمّها في دراسة من أوسع الدراسات عن العربية الحديثة، والتي نشرت في كتاب في الانجليزية، جديرة بالعرض والتمحيص لأهميتها وحتى خطورتها في بعض الأحيان. يقول ستيتكنفتيش في خلاصة كتابه عن هذا النمط من العربية:

«إن المفهوم الخادع بأن هذا النمط من العربية غير مُطعَّم، لموجود؛ إذ نادراً ما سيكون القاموس ذا فائدة في تتبع آثار الابتعاد عن الفصحى كما ان التوسعات في المعاني الواردة واسعة وشفافة لدرجة أنها لا تعيق استيعاباً مرضياً. توسيع الصفات يدعمه السياق التشبيهي، والانطباع العام هو ان تلك لغة واضحة ودقيقة بحيث لا يتردد الشعراء والكتاب في استعمالها، ونادراً ما يركز النقاد على خصائصها. وفي الحقيقة أن الانطباع المتزايد أنه لا يبدو أن هناك ما يميز خصائص هذا النمط. وهي ليست «بلغة الصحفيين» كما كانت تسمى قبل خمسين عاما. كذلك فإنها ليست اختراعاً جديداً أو صرعة. لقد غمر الوضوح الطبيعي في هذا النمط المصطلح المستعار، حتى أصبح من الصعب التمييز بأن هذا النمط غريب أو خارج عن العربية الفصحى. وفي الوقت نفسه فإن قليلاً من مستعملي هذا المصطلح العربي الجديد يعلمون مدى قربهم من آفاق لغوية جديدة. يستطيع المترجمون الآن دون عناء، وبسهولة فياضة أن ينقلوا العربية المعاصرة للغات الحديثة الأخرى، والعكس بالعكس.

(٢٧) Stetkevych, Jaroslav: **The Modern Arabic Literary Language: Lexical and Stylistic Development**, Chicago, University of Chicago Press, 1970.

«وكما تظهر المحبة والإلفة اللغوية على التباين الذي ساد سابقاً، كذلك يجد العرب اللغات الاجنبية أسهل ويرى آخرون العربية أسهل ايضاً».

وبمضي ستيتكيفيتش بعيداً في استنتاجاته ليصل إلى نتيجة أن قواعد اللغة العربية الحديثة لم تبدأ بالابتعاد وحسب عن العربية الفصحى، لكنها بدأت تتسبب في تغريب ديناميكية التفكير في العربية، وأن العربية كلغة قد تعدت حدودها من الوجهة السلالية، وانتقلت من لغة سامية لتدخل مجموعة اللغات الأوروبية الحديثة الفوق السلالية. ونتيجة ستيتكيفيتش التي ينهي بها كتابه جديرة بالتمحيص، خاصة من الهيئات المشرفة على التخطيط اللغوي في العالم العربي. يقول ستيتكيفيتش:

«من خلال مفرداتها (الغريبة) الجديدة، وسياق صقل التفكير الذي تقوم به المفردات، وأخيراً وليس آخراً من خلال تلك الثروة العظيمة والتنويع لتلك النماذج الاصطلاحية المتنوعة، وأشباه الجمل الأدبية المستعارة، فإن العربية الحديثة قد تعدت حدود سلالتها النسقية، وانها قد دخلت بصلة ألفة مضماراً لغوياً حضارياً مع عائلة جديدة فوق سلالية من اللغات الأوروبية الحديثة. اما عملية استيعابها في الغرب فقد بدأت حديثاً، لكن تهيئتها ثابتة وخطاها بالطبع سريعة. تستمر العربية الحديثة من ناحية صرفها لغة سامية، وإلى حد بعيد مازالت الفصحى في هذا المجال؛ لكن بقاءها ضمن هذا التعريف سيكون غلطة. فجلّ تركيب نحوها الآن يتمشى مع ديناميكية تفكير غير سامية إلى حد بعيد. فالعقل العربي الحديث يتحول إلى فرع للعقل الغربي الحديث، ويحتفظ بالقليل من صلابة ديناميكية التفكير السامية. والعقل العربي الحديث يتحول إلى استمرار للعقل الغربي، ولهذا فإنه يحتفظ بالقليل من عادات التفكير الساميّة المتصلبة، وكذلك بالقليل من القوالب الكلاسيكية والخصائص التركيبية. وان روحاً لغوية ثقافية حديثة مشتركة تتطور الآن لتكون العامل المعرف للعربية الحديثة».

لا شك في أن ستيتكيفيتش يبالغ في نتائجه بتأثير اللغات الأوروبية على العقل العربي، وطريقة التفكير العربية من خلال التأثير اللغوي، لكن تلك الاستنتاجات لا تخلو

من شيء من الصحة. يعارض هذا الرأي لستيتكيفيتش نجم بزرقان[٢٨]، أستاذ الأدب العربي والفلسفة السابق في جامعة تكساس بأميركا في مقالة له إذ يقول بأن هناك تياراً جديداً في الكتابة العربية وهو يمثل الميل إلى الكتابة بأسلوب مشابه لأساليب الكتّاب العرب في الفترة الوسطى. ويستشهد بزرجان بكتاب **مصير** لسركيس وكتاب **عبدالله** لكرم كأمثلة لهذا التيار. كذلك يقول بزرجان بأنه رغم التغييرات التي اعترت العربية الحديثة في نحوها وأسلوبها فهي استمرار للفصحى؛ ولذلك فإنها «تشهد بانتصار دعاة الفصحى على خصوم أبطال العامية في المعركة التي استعرت في نهاية القرن التاسع عشر، واستمرت للعقود الثلاثة الأولى من القرن الحالي».

يميز السعيد بدوي في كتابه المعروف **مستويات اللغة العربية المعاصرة في مصر** بين خمسة مستويات رئيسة للعربية، وإني أراني أتناسى الأسماء المبتدعة في الغرب لوصف الأنماط الجديدة واستخدم ما عناه السعيد بدوي في مستوياته وهذه المستويات الخمسة هي:

١. فصحى التراث: وهي الفصحى القرآنية وتكاد تكون وقفاً على رجال الدين من علماء الأزهر وتنحصر في البرامج الدينية المعدة مسبقاً. وهي تمثل مستوى تاريخي موروث.

٢. فصحى العصر ومجالها أوسع من فصحى التراث إذ تشمل كل جوانب حياتنا المعاصرة وتستخدم في تقديم برامج الأخبار والتعليق السياسي والأحاديث العلمية ... الخ.

٣. عامية المثقفين وهي ما يستخدمه المثقفون في الأمور التجريدية وفي المناقشات العلمية والسياسة والفنية وقد أصبحت عامية المثقفين «بمفرداتها وتعبيراتها ومرونتها مستودع الحضارة المصرية ولسان العلم المعاصر».

---

(٢٨) Bezirgan, Najm: "Language and Reality in the Arab World", in: Said, E. and F. Suleiman (eds.): **The Arabs Today: Alternatives for Tomorrow**, Columbus, Forum Associates, Inc., 1973.

٤ . عامية المتنورين وهي ما يستخدمه غير الأميين عموماً في أمور الحياة العملية اليومية من الرواية والأخبار والبيع والشراء وما يجري من الحديث مع الأصدقاء عن الطعام والملابس ... الخ.

٥ . عامية الأميين وهو ما يستخدم في البرامج التمثيلية والمسرحيات الفكاهية. «لغة أولاد البلد» من الجنسين.

ولو اردنا تقريب هذه المستويات للأنماط، لوجدنا أن المستوى الأول ينضم (ولم أقل يقارن بـ) تحت لواء العربية الفصحى، إذ ان العربية الفصحى اشمل وأعم مما قصده السعيد بدوي بفصحى التراث، ففي حين حصر السعيد بدوي فصحى التراث بالبرامج الدينية والأزهر، أرى أن فصحى التراث شاملة كل الميادين وتسير بتواز وبتقاطع مع فصحى العصر. وقد قرأت حديثاً جداً استطلاعاً مصوراً في مجلة **العربي** الكويتية كتب بفصحى التراث أو العربية الكلاسيكية أو أفضل هذه الأسماء، العربية الفصحى.

أما المستوى الثاني فيقابل النمط الثاني، أي العربية الحديثة Modern Standard Arabic (M.S.A.) ويقابل المستويان الثالث والرابع (عامة المثقفين وعامية المتنورين) النمط الثالث عربية المثقفين Educated Arabic. والنمطان الرابع والخامس يشكلان العامية / واللهجة / والدارجة.

المراحل التاريخية للازدواجية

من المناسب بمكان بعد استعراض الأنماط الأربعة للعربية ومقارنتها بالمستويات الخمسة التي افترضها الباحث السعيد بدوي، ان نستعرض ثلاث مراحل تاريخية ذات مساس مباشر بطبيعة الازدواجية وتطورها وتطور النظرة نحوها ودوافع الدعوات لاستخدام نمط دون آخر. وجدير بالتنويه في هذا المجال الإشارة إلى ان التطور التاريخي للاتجاهات والدعوات من حيث اختيار نمط دون آخر ودوافع ذلك قد رصد رصداً دقيقاً مشفوعاً بالتعليلات المنطقية والتفاصيل الدقيقة الموثقة في عملين رئيسين أحدهما مؤلف نفّوسة زكريا سعيد الموسوم بـ **تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر** والثاني مؤلف أنور الجندي الموسوم بـ **الفصحى لغة القرآن**. والمؤلفان قَيِّمان.

كذلك من الضرورة بمكان التنويه قبل الحديث عن المراحل الثلاث التي برز بها الصراع بين الفصحى والعامية بأن العامية كانت تستخدم دون الفصحى في مواضع خاصة وكانت هناك دعوات لضبطها للاستخدام في الكتابة لأغراض خاصة، ولم تكن تلك الدعوات لتلقى مقاومة وذلك لان دوافعها لم تكن لتسيء إلى العربية. وكان الشيخ رفاعة الطهطاوي من أوائل الداعين إلى التصنيف بالعامية في كتابه **أنور توفيق الجليل** كذلك أصدر يعقوب صنوع مجلة أبو نظارة عام ١٨٧٨ للترويح والإضحاك وكانت العامية المصرية هي الغالبة فيها، وكذلك أصدر ج. زنانيري عام ١٨٩٦ **مجلة العزاله** لاطلاع العامة على أحوال مصر، وأصدر محمد النجار **مجلة الأرغول** حول هذا التاريخ أيضاً. بدأ التحسس من إثارة موضوع استخدام العامية بعد المرحلة الأولى من المراحل الثلاث:

١. مرحلة الاهتمام الغربي

رغم أن قضية ازدواجية اللغة ربما كانت موجودة كما تدل بعض الشواهد منذ بدايات الوحي وانتشار الإسلام، إلا أن أول من أبرز الفصل بين الفصحى والعامية كانت بعض المدارس الاوروبية التي أسست برامج لتدريس العامية فيها. وقد بدأت أول تلك البرامج لتدريس العامية في إيطاليا سنة ١٧٢٧ (مدرسة نابولي للدروس الشرقية) ثم في النمسا عام ١٧٤٥ (مدرسة القناصل) ودرس بها حسن المصري الذي ألّف كتاباً بعنوان **أحسن النجب في معرفة لسان العرب**. وبدأ تدريس العامية في فرنسا عام ١٧٥٩ (مدرسة باريس للغات الشرقية)، ودرس هناك ميخائل الصباغ الذي ألف كتاباً في العاميتين المصرية والسورية بعنوان **الرسالة التامة في كلام العامة والمناهج في أحوال الكلام الدارج** سنة ١٨٦٦. وفي عام ١٨١٤ أنشئت مدرسة لازارف الاكليركية للغات الشرقية في موسكو وعمل بها الشيخ محمد عباد الطنطاوي وألف كتاب **أحسن النجب في معرفة لسان العرب**. ثم أنشئت مدارس في برلين وفي المجر وفيما بعد في انكلترا إذ أنشأت جامعة لندن فرعاً فيها لتدريس الفصحى والعامية في أوائل القرن التاسع عشر وقد ألف أحمد فارس الشدياق كتاباً في العامية لجامعة لندن بعنوان **أصول اللغة العربية المحكية** في ١٨٥٦. وتشير نفوسه سعيد إلى أنه بإيعاز من تلك المدارس الغربية فقد تم تأليف كتب كثيرة في اللهجات العربية (معظمها موجود في المكتبة التيمورية) وتشمل كتباً في

لهجات بغداد وبيروت ومراكش ودمشق وتونس. أما اللهجة المصرية فكان لها نصيب الأسد من هذه المؤلفات وأهمها مؤلف وليم سبيتا **قواعد العربية العامية في مصر**، وكان سبيتا الماني الجنسية يعمل مديراً لدار الكتب المصرية، ومؤلف ولمور القاضي الانجليزي بعنوان **اللغة المحكية في مصر عام ١٩٠١**، ثم كتاب **المقتضب في عربية مصر** للقاضيين باول وفيلوت ومحاضرات وولكوكس مهندس الري البريطاني.

ومن الجدير بالذكر هنا أن الحماس المنقطع النظير الذي أبداه الأوروبيون العاملون في مصر للعامية والدعوى لها يثير الاستغراب. ولا شك أن هجمتهم على اللغة العربية الفصحى كان فيها الكثير من الجهل بمكانتها والاجحاف بحقها إن لم نقل عدم الموضوعية. على رأس هؤلاء مهندس الري البريطاني وليم ولكوكس الذي وفد إلى مصر عام ١٨٨٣ في أول عهد الاحتلال البريطاني، وقام بالمطالبة بإحلال العامية محل الفصحى. ففي محاضرة بعنوان «لِمَ لم توجد قوة الاختراع لدى المصريين الآن» والتي نشرت في **مجلة الأزهر** التي كان ولكوكس أحد محرريها، يزعم ولكوكس أن أهم عائق يمنع المصريين من الاختراع هو أنهم يؤلفون ويكتبون بالعربية الفصحى، ولو أنهم كتبوا بالعامية لأثار ذلك ملكة الابتكار ونمَّاها. وفي رسالة نشرها بالانجليزية بعنوان «سوريا ومصر وشمال افريقيا تتكلم البونية لا العربية» عام ١٩٢٦ زعم فيها أن اللهجات العربية كنعانية أو فينيقية أما في مصر فهي بونية والبونية لغة انحدرت إلى مصر من الهكسوس الذين أقاموا في مصر لمدة خمسماية عام.

وقد حاول مهندس الري الانجليزي ولكوكس وغيره إدخال العامية في نماذج أدبية رفيعة. فقد ترجم ولكوكس إلى العامية قطعاً من روايات شكسبير والانجيل. كما ألّف كتاباً بالعامية أسماه **الأكل والإيمان** يحتوي على إرشادات صحية. كذلك قام بوريان Bouriant مدير بعثة الآثار الفرنسية إلى القاهرة بجمع ونشر الأزجال المصرية، وقام جاستون ماسبيرو Maspero مفتش الآثار المصرية بجمع الأغاني الشعبية المتداولة في مصر العليا(٢٩).

(٢٩) لمزيد من التفصيل والامثلة، انظر: سعيد، نفوسة: **تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر**، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٠.

٢. مرحلة الاقليمية رداً على القومية العربية

بعد ثورة عام ١٩١٩ في مصر، برزت مجموعة من الكتّاب يدعون لما نسميه الفرعونية المصرية، أو الاقليمية الضيقة. ولم يكن الاستعمار البريطاني مشجعً للفكرة وحسب، بل متبنياً لها. وقد علّق محمد حسين[٣٠] على هذه الحركة بأنها حركة استعمارية انفصالية كان وراءها الانجليز. وقد دعت هذه الحركة إلى «مصرنة أو تمصير» اللغة والفن والأدب، واستعمال العامية المصرية كوسط لهذه الأشكال الأدبية. في هذه الفترة دعا أحمد لطفي السيد إلى ما أسماه «التسامح اللغوي» وما قصده بذلك هو إصلاح الفصحى باستعمال ألفاظ من العامية بالإضافة إلى الألفاظ المستعارة الأخرى في الكتابة، وقد نشر أفكاره في صحيفته **الجريده** في سبع مقالات عام ١٩١٣. أما محمد تيمور وسلامة موسى فقد كانا يدعوان إلى النهوض بالعامية لتكون لغة قومية. وفي تلك الأثناء وفي عام ١٩٤٣ فاجأ عبدالعزيز فهمي مجمع اللغة العربية بالقاهرة باقتراحه أن تكتب العربية بأحرف لاتينية؛ لكن الدعوة التي سبقه إليها سلامة موسى ماتت بموته.

وتقع ضمن هذه المرحلة جهود لويس عوض بحربه على الفصحى ودعوته لاستخدام العامية المصرية، إذ نادى بذلك مجاهرة في مقدمة ديوانه **بلوتولاند** الذي طبعه عام ١٩٤٧ ونادى كذلك بتحطيم عمود الشعر، إذ أن الشعر برأيه قد مات بموت أحمد شوقي ميتة إلى الأبد. لم يستطع لويس عوض أن يبر لنفسه بوعده بأن لا يكتب إلا بالعامية وعاد بعد عام واحد عن الكتابة بالمصرية.

أما في سوريا ولبنان فقد قاد حملة الدعوة إلى العامية الخوري مارون غصن الذي نشر كتابه **حياة اللغة وموتها: اللغة العامية** عام ١٩٢٦، ورد عليه الأب لويس شيخو والأب صالحاني في حينه. أما دعوة سعيد عقل إلى اعتماد اللغة اللبنانية أو اللهجة اللبنانية وكتابتها بالأحرف اللاتينية فهي الأشد شراسة وتخفي في طياتها أهدافاً سياسية تتعلق بهوية لبنان في محيطه ويعكس خوف المسيحي اللبناني من الذوبان في المحيط العربي المسلم. وقد أصدر سعيد عقل أول ـ وآخر ـ كتاب له باللغة اللبنانية مكتوباً بالحرف اللاتيني عام ١٩٦١ بعنوان **يارا ـ شعر**. أما أنيس الخوري فريحه أستاذ اللغات السامية

(٣٠) حسين، محمد: **الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر**، بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٧٢.

بالجامعة الأمريكية في بيروت فقد بدا بدراسة للعامية عام ١٩٤٧ بكتابة **معجم الألفاظ العامية في اللهجة اللبنانية**. وكما يقول أنور الجندي، فقد كتب فريحة موضوعه المشهور «هذا الصرف وهذا النحو: أما لهذا الليل من آخر» تمنى فيه أن يرى حاكماً عسكرياً سياسياً يفرض العامية على العرب وقد رأى عمر فروح في مقالة فريحة «تهكماً سمجاً».

ومما يثير الاهتمام هنا هو أن أي دعوة انفصالية اقليمية تتسلح بسلاح تجزئة اللغة العربية بالدعوة إلى استعمال العامية. وعكس ذلك، أي الدعوات الاتحادية التي يهمها أن تبقى على وفاق تام مع العروبة والإسلام، فإننا دائماً نجد الدعوة إلى وحدة اللغة أحد أهم أركان الدعوة. ويصدق ذلك على أجزاء كبيرة حاول الاستعمار أن يقتطعها كلياً من الوطن الأم، إذ تعرضت لجميع صنوف الاضطهاد الفكري واللغوي والحضاري بقصد الضم إلى الدول الاستعمارية، ألا وهي شمال افريقيا. وهذا تأييد مطلق للفرضية القائلة إن أولئك الذين يطمحون للانفصال يدعون للتجزئة، وأولئك الذين يدعون للوحدة والتماسك يتمسكون بالعربية ووحدتها. يقول شحنة في بحث الوضع اللغوي في شمال افريقيا:

«كان الاهتمام الشمال افريقي بالعربية يتركز على الاعتراف بها كلغة للشعب والدولة، ودون تأكيد على عملها كأداة للاتصال؛ إذ ان عدداً من قادة الحركات الاستقلالية كان أكثر طلاقة وقدرة في التعبير في الفرنسية لا بالعربية ـ وهذا الوضع كان محرجاً لبعضهم ـ وقد قام أحمد بن بلاّ، رئيس الوزراء السابق للجزائر، بتأمين مدرس خصوصي في العربية حتى يستطيع استعمالها في جزائر مستقلة»

لقد توقعت دول شمال افريقيا العربية أن تواجه صعوبات جمة في التعريب، وخاصة الجزائر وتونس والمغرب؛ لكن الجهود تظافرت وما زالت تتظافر بكل حيوية واندفاع نحو التعريب الشامل. يقول شحنه في هذا الصدد:

«لم تضعف جهود الشمال افريقيين في سبيل تحصيل تعريب تام وكامل. فحال حصول تلك الدول على الاستقلال أعيد تأسيس العربية كلغة رسمية وشعبية، وانبعثت جميع الطرق لإعادة حيوية اللغة، بتأسيس مدارس متعددة، وبنشر الدوريات والكتب. وفي السنوات القليلة الماضية أصبح الشمال افريقيون واعين للمشكلة اللغوية، ودأبوا في

المحاولة لإيجاد الطرق لحلها، كما يثبت ذلك المؤتمر العربي المنعقد في الرباط عام ١٩٦١».

وعلى النقيض من ذلك فإن الطريق إلى «تغريب» العرب تبدأ بكتابة لهجاتهم وتطويرها، أو ما يسمى «النهوض بها» إلى لغات قومية. ومن أروع الأمثلة لمثل هذا التحول هو مثال الجماعات الناطقة بالعربية في الاتحاد السوفييتي. فباسم جعل العربية لغة ديمقراطية كتب السوفييت بأحرف سيريليه اللهجات العربية وبهذا أنجز السوفييت، كما تقول باتيسون[٣١] في كتابها «تشعيب هذه المجموعات، وقطعها تماماً عن القومية العربية، وعن نصيب من الثراء الثقافي القديم والجديد».

٣. مرحلة الوعي العربي

تبدأ هذه المرحلة بفترة ما بعد الحرب العالمية الثانية؛ إذ بدأت الدول العربية تأخذ استقلالها ولو شكلياً من الدول المستعمرة. لقد واجهت تلك الدول مشكلات جمة، منها مشكلة ازدواجية اللغة لعلاقتها المباشرة في التعليم. وفي هذه الفترة أعيد طرح بعض المقترحات الغريبة بالدعوة إلى العامية؛ ثم لبست هذه الدعوة ثياباً جديدة، فطرح أنيس في عام ١٩٦٠ تعميم إحدى اللهجات العربية ـ المصرية ـ كلغة قومية، وكذلك طرح فريحة عام ١٩٥٥ نمطاً يتكلمه المثقفون العرب. لكن الاهتمام بدأ ينصب على ما يسمى إصلاح اللغة وتيسير قواعدها. وفي هذه الفترة أيضاً نشطت المجامع اللغوية العربية، واجتمعت في دمشق عام ١٩٥٧؛ وكان هناك شبه إجماع على رفض الدعوة إلى العامية رفضاً باتاً، واتخذت التوصيات لتسهيل العربية والرقي بها، ونشرت تلك التوصيات في حينه في مجلة مجمع اللغة العربي السوري.

أستطيع القول وبكل ثقة أن الدعوة إلى العامية الآن لا تؤخذ على محمل الجد في الوسط الثقافي العربي. ولاعتبارات كثيرة منها الوطنية والقومية والدينية والتربوية والسياسية والاقتصادية والتراثية، لم يعد هناك أي حماس لفكرة تحويل اللهجات إلى

(٣١) Bateson, Mary C.: **Arabic Language Handbook,** Washington, DC, Center for Applied Linguistics, 1967.

لغات وأخذت العربية الفصحى تأخذ دورها كلغة أساسية في حياة العرب مع اتساع متزايد لرقعة استعمال اللغات الاجنبية في التعليم وخاصة في التعليم العالي. ولا شك بأن اللغة العربية قد تغيرت في وجوه كثيرة خصوصاً في استعمالاتها الشفهية منتجة انماطاً جديدة كاللغة الوسطى، أو عربية المثقفين، كما ذكرنا آنفاً. لكن اللغة الرسمية المستعملة في الكتابة والمعاملات الرسمية والتعليم تبقى العربية الفصحى أي النمط الذي يشتمل العربية الكلاسيكية والعربية الحديثة.

ولو نظرنا في الدوافع النفسية للدعاة إلى العامية والكتابة باللاتينية لأيقنّا أي غيرة تدفعهم للسير في هذا الاتجاه. دعنا ننظر لبعض ما كتب سلامة موسى مثلاً تبريراً للدعوة للكتابة بالأحرف اللاتينية؛ وهذا مقتطف قصير من مقالة نشرتها **مجلة شؤون الشرق الأوسط** بالانجليزية. يقول سلامة:

«لن يفاجأ الكاتب إن طالب العرب في يوم من الأيام بالأحرف اللاتينية لكتابة لغتهم. هذا الانتقال، إن تحقق، فلن يؤثر بحياتنا الثقافية والأدبية وحسب، ولكنه سيكون علامة لتغيُّر في اتجاهاتنا النفسية. سنرحب بالحضارة الصناعية الحديثة بقيمها الأخلاقية والثقافية والروحية، والمشاكل التي تبدو الآن صعبة الحل ستكون أسهل. لن نرفض استعمال الكلمات الأوروبية؛ لن نتعلق حينها بتراثنا المضاهي وكأنه الدعم الوحيد لحياتنا...».

هل العرب بحاجة لقيم وأخلاق وثقافة وروح الحضارة الصناعية الحديثة؟ هل غيّر اليابانيون لغتهم او دينهم أو مُثل أخلاقهم عندما أصبحوا ينافسون أميركا صناعياً؟ حتى لو كنا بحاجة لذلك، فهل يتم ذلك إن غيّرنا الطريقة التي تكتب بها لغتنا؟ لا شك بأن هناك الكثير من التبسيط للأمور والابتعاد عن الموضوعية العلمية ودوافع أخرى عند من يلقي الكلام على عواهنه بهذه الطريقة. فلو جاءت هكذا دعوات نتيجة لدراسات ميدانية تظهر صحة هذه الإفتراضات لكان من الممكن النظر فيها جدياً وليس بالضرورة اعتمادها لأن هذه القرارات تتداخل وتتشابك مع عوامل كثيرة قد تكون أكثر أهمية ودلالة.

إن هناك مما أثبتته النظرية اللغوية الحديثة ما يجعلنا نتمسك باللغة العربية الفصحى، وتضييق الشقة بينها وبين العامية؛ كذلك هناك في الدراسات اللغوية التاريخية المقارنة ما

يحتم على الأمة العربية أن تتمسك بالفصحى، وإلا كُتب لها التفرق والضياع، وذلك كله بجانب العوامل الدينية والقومية. وفي هذا الجزء من هذا البحث سأبحث العاملين السابقين وانعكاساتهما على الوضع اللغوي العربي.

لا شك في أن اللغة الواحدة، إن أمكن إيجاد مثل تلك اللغة للكتابة والحديث في البيت والشارع والمدرسة والمكتب، لهو وضع مثالي. لكن هل يمكن ذلك؟ إن ذلك شبه مستحيل، إذ أن كل لغة في العالم تواجه وضعاً ازدواجياً بشكل أو بآخر. لنضرب مثلاً في الانجليزية: هل يتكلم الأميركي في تكساس بالطريقة نفسها التي يتكلم بها الأميركي في مساشوستس مثلا؟ او الطريقة التي يتكلم بها الأميركي في أوهايو أو شيكاغو؟ ماذا نسمي كلام السود في أميركا مقارنة بالمستوى الكلامي العام للرجل الأبيض؟ ماذا نسمي كلام الكوكني مقارنة بكلام الملكة في بريطانيا؟ أليس ذلك أشبه بالفصحى والعامية؟ ألا يستطيع الأميركي معرفة مواطنه من أي بقعة في أميركا عندما يتكلم؟ إن ذلك يحصل في اميركا، البلد الذي نستطيع فيه أن نتكلم من الساحل الشرقي إلى الساحل الغربي ببضع ثوان، وأن نراقب نفس البرنامج التلفزيوني الذي يُبَث للشعب الأميركي كاملاً، ونتنقل أينما نشاء دون سؤال أو جواب أو هوية أو جواز سفر أو تأشيرة أو تصريح؟ هل يستطيع الأبيض من الطبقة الوسطى في أميركا أن يفهم مواطنه الأسود أكثر مما يستطيع العربي من اليمن أن يفهم العربي في تونس؟ إن كلام الملكة في بريطانيا، وكلام الأبيض البروتستانتي الانجلوسكسوني في أميركا ليسا سوى مثيل للفصحى والعامية في اللغة العربية مع فارق العاملين الديني والقومي. وما اللغة الفرنسية التي ينطق بها التلفاز والمدرس في الجامعة والنخبة المثقفة من الفرنسيين إلا اللهجة الباريسية التي فرضتها الثورة الفرنسية أثر بيان ثوري، واتخذت قراراً باستعمالها والقضاء على العاميات التي كانت تسمى «الباتواز» Patois. لكن هل انتهت «الباتواز»؟ لا، لقد بقيت وستبقى، لكن المثقف الفرنسي يرى باللهجة الباريسية عنوان الثقافة الفرنسية.

فالجانب الازدواجي طبيعي اذن وبأية لغة؛ لئن كان هناك أي فرق بين ازدواجية اللغة العربية واللغات العالمية الأخرى كالانجليزية والفرنسية، فإنه فرق كمّي، إذ ربما كانت الفجوة ود: زالت أضيق بين الفصحى والعامية في تلك اللغات مما هي في العربية. وما ذلك إلا بسبب عمل القوانين الطبيعية للتغير اللغوي.

من طبيعة اللغة أن تتغير إن تركت دون ضبط. وهذا التغير قد يؤدي بفعل عوامل متعددة الى خلق لغة جديدة. وهذا كان من الممكن أن يحصل للعربية لولا العوامل الدينية والقومية السالفة الذكر، التي احتفظت بالفصحى وبوحدة اللغة. وهذا الاحتفاظ قد زاد إثراءها وسعة ثقافتها ودوام عطائها للوحدة. وهذا جانب يُحسد الناطقون بالعربية عليه. ولأوضح هذه النقطة دعني أسأل هذا السؤال: تخيل ماذا كان يمكن أن يحصل لو رُفعت اللهجات لمستوى اللغات القومية وكُتبت؟ وللاجابة عن هذا السؤال أود أن أستشهد بعبرة تاريخية يجب أن تبقى في ذهن المثقف العربي كلما طلع صوت ينادي بالعامية في الوطن العربي. ومثالي هو اللغة اللاتينية واللغات الرومانسية Romance Languages. فقد كانت اللاتينية هي لغة الأدب والعلم والثقافة والدين في أوروبا في أول الامبراطورية الرومانية؛ ومن لم يلق نصيباً من العلم في هذه اللغة يبقى علمه ناقصاً؛ مهما كان حقل تخصصه أو وظيفته أو مكانته الاجتماعية. وبمرور الزمن تطور نمط آخر من اللاتينية يتكلمه العامة وعساكر الرومان، فأصبح الوضع موازياً للعربية، إذ كان هناك اللاتينية الفصحى Classical Latin والعامية المسماة Vulgar Latin، (والاسم لا يعني العامية فقط بل يتضمن معنى السوقية وغياب الصقل). وبالرغم من أن اللاتينية ذات أثر كبير دينياً، إلا أنها لا تملك قدسية العربية في نفوس الناطقين بها؛ كما لا تلعب دور العربية بوحدة متكلميها؛ لذا ترك الأمر لتطورها الطبيعي. وباختلاط جنود الرومان، متكلمي العامية، بالشعوب الأخرى الذين يتحدثون لغات مختلفة، أو لهجات من لغات مختلفة، تطور من العامية - وهذا نسق طبيعي - لغات جديدة تعتمد على الجذور اللاتينية كأساس، والمؤثرات اللغوية الأخرى كعوامل مكونة. وهكذا كانت ولادة الفرنسية والاسبانية والبرتغالية والايطالية والرومانية. وإن قلَّ الضبط عن أي من تلك اللغات فلا يستبعد، بل من الطبيعي أن ينشأ عنها لغات جديدة. وهذا حتماً ما كان سيحصل لأي لهجة عربية لو كُتبت أو أصبحت لغة قومية.

في الحقيقة لقد حصل ذلك التحول بإحدى اللهجات العربية، وهو مثال حي أمام أعيننا وقلما نفكر بجديّته وعقبى نتائجه؛ وهو مثال مالطا. فقد كان أهل مالطا يتكلمون العربية، ونظراً لانسلاخها دينياً وقومياً عن جسم العالم العربي، فقد كتبت هذه اللغة بالأحرف اللاتينية، وفتح باب الاقتراض على مصراعيه من اللغات الأوروبية، وخاصة الايطالية والانجليزية، وتطورت هذه اللهجة العربية إلى ما يسمى اليوم اللغة المالطية، التي تتحدى

أي عربي ان يفهمها رغم أن جل الكلام فيها عربي الجذور. كيف يتعامى المرء عن مثل هذه النتائج الحتمية؟ هل يعرف دعاة العامية أمثلة من هذا النوع؟ هل درسوا أو اطلعوا على النظرية اللغوية والتغير اللغوي قبل أن ينصبوا انفسهم مصلحين؟.

إذا كان وضع الازدواجية طبيعياً في معظم لغات العالم، فلماذا يكون هذا الوضع «غير طبيعي» أو عائقاً للتقدم في البلاد العربية؟ باعتقادي أن ذلك يعود لسببين رئيسيين: أولهما ازدياد الفجوة بين الفصحى واللهجات نتيجة العوامل التاريخية السالفة الذكر، حتى أصبحتا وكأنهما لغتان مختلفتان في أعين كثير من الباحثين؛ ومع المبالغة بذلك الاختلاف أصبح الكثير يعتقد انهما مختلفتان فعلاً. وثانيهما أنه رغم استقلال الدول العربية وتبني اللغة العربية رسمياً وشعبياً، فإن الاعتماد على اللغات الأجنبية، وفي القطاعات المختلفة، ما زال واسعاً. وسأعرض لهذين السببين بمزيد من التفصيل.

لقد بالغ كثيرون من الذين كتبوا عن العربية في الغرب بالاختلافات بين الفصحى والعامية، حتى أن كثيراً من التعميمات التي نشرها بعض باحثيهم المحترمين علمياً تثير الاستغراب. فاللغوي الاجتماعي جمبيرز على سبيل المثال يساوي بين دور العربية الفصحى في المجتمع العربي ودور اللاتينية في أوروبا العصور الوسطى، والسينسكريتية في جنوب آسيا مهملاً أو جاهلاً خصائص اللغة العربية ودورها الديني والسياسي والتراثي. فهو يعطي اللغات الثلاث ـ بما فيهما العربية ـ

«كمثال للغات مميزة ليس لها علاقة بالكلام الشعبي (اللهجات) ... وأن الطقوس المفصلة والمراسيم التي تحيط استعمالها لا تُكتَسب إلا بعد سنين عديدة من التدريب الخاص. يتوفر التعليم بها فقط بواسطة المدرسين الخاصين، ومحدود لأصحاب الامتيازات القلائل الذين يملكون الجاه الاجتماعي والموارد المالية. نتيجة ذلك، فمعرفة تلك اللغات في المجتمعات التقليدية حصر لجماعة مختارة محدودة نسبياً». إن هذا ولا شك لا ينطبق على العربية».

وحيث أن اللغة العربية الفصحى أثبتت أنها باقية ومستمرة لغة حضارة وتعليم وثقافة وأدب فإنني سأعرض في نهاية هذا البحث إلى ما يمكن عمله لتضييق الشقة بين الفصحى والعامية والأهم في ذلك ما يمكن عمله للارتقاء باستخدام العربية ليشمل كل

قطاعات المجتمعات العربية، ولتصبح العربية اللغة الأساسية في التعليم، ذلك الأساس الذي ترتكز عليه اللغة، ويعتمد انتشارها عليه.

لا ريب في أن أهم مسببات اتساع الفجوة بين العامية والفصحى، بل من أهم أسباب ازدهار العامية، هو ارتفاع نسبة الأمية في مجتمع ما، والرقم في مجتمعنا العربي مُعيب إذ يقارب، إن لم يتجاوز ٧٠٪ في بعض الدول، وبعكس ما أشار إليه بعض الباحثين أمثال ألن كي ووكسلر لا نستطيع أن نعزي ارتفاع نسبة الأمية في الوطن العربي إلى الازدواجية، بل نستطيع أن نستنتج أن ارتفاع نسبة الأمية هو الذي زاد الفجوة اتساعاً بين الفصحى والعامية، ولم يأت بأية حال نتيجة له. إن هذه النسبة العالية في العالم العربي هي نتيجة مباشرة لخمسة قرون من الإهمال تبعها فترة من الاستغلال الاستعماري، لكن التذرع بذلك دون محاولة علاجها سيبقى الأمور على حالها وربما يزيدها سؤاً. وقد بدأت الكثير من الدول العربية، وفي كثير من الاحيان على المستويات غير الحكومية، تعمل على رفع مستويات التعليم من خلال حملات محو الأمية. وجدير بالذكر أن من أنجح الحملات التي بدأت فعلاً هي تلك التي قامت بها الحكومة العراقية، والتي يظن انها قاربت أنجح الحملات العالمية لإزالة الأمية، كالحملة في كوبا وتركيا. ومن المنتظر أن يكون عطاء الدول المنتجة للنفط أكبر مما هو عليه الآن في هذا السبيل. وجميع الدولة العربية بأمسّ الحاجة لتلك الحملات، لكن أحوج تلك البلاد الآن هي السعودية، واليمن، وعمان ودول الخليج، والسودان والمغرب.

منطلقنا الثاني يجب أن يكون المدرسة العربية. لن نحقق أي تحسن في هذا السبيل إلا إذا التزم المدرس العربي بلغته؛ والتزامه يحتم عليه أن يستعمل الفصحى لا العامية في محاضراته، وأن يشجع تلاميذه للسؤال والمناقشة بالفصحى إن كان الدرس ديناً أو فيزياء أو رياضيات أو جغرافيا، كذلك يجب التركيز على المراحل الأولى من تدريس الفصحى وآدابها، وذلك بتدريب معلمين أكفياء لتدريس مختلف المهارات اللغوية، من استماع وكلام وقراءة وكتابة. ولا يتسنى ذلك إلا إذا تعاون البيت مع المدرسة، والمؤلف مع المدرسة والمجمع اللغوي مع المدرسة. كما أنه لا يكفي لعمل ذلك أن تصدر القرارات، بل يجب أن تراقب الهيئات المعنية مختلف مراحل تطبيقها وتنفيذها.

ولا يقلّ عمل أجهزة الاعلام أهمية عن عمل المدرسة والبيت. ويلتزم الكثير من وسائل الاعلام باستعمال الفصحى في الأخبار والبرامج السياسية وحتى بعض المسلسلات ويلاحظ أيضاً استعمال العاميّة في كثير من المسلسلات المحلية ولكنها عامية قريبة من الفصحى وذلك للرغبة في الانتشار في البلاد العربية الأخرى. وكلما قل استعمال الكلمة العامية الصرفة في تلك الأجهزة، وكثر استعمال الفصيح أو الفصيح الميسر سَهُلَ على الناس فهم الفصحى والتعامل معها. ويلخص أنور الجندي بعض المشاكل التي تواجهها الفصحى فيقول:

«ومن الأخطار التي تواجه اللغة العربية: انه يندر أن تجد بين مدرسي اللغة العربية نفسها من يستخدمها في شرح ما يريد إنما يستخدمون اللهجة العامية، وكذلك محاكاة الكثير من الصحفيين الأساليب الأجنبية في تسلسل أجزاء الجملة وربط عناصر العبارة بعضها ببعض، وكذلك في محاكاة الأسلوب الافرنجي في الخروج عمّا يسير عليه الأسلوب العربي في ترتيب عناصر الجملة وربطها بعضها ببعض، وتنسيق أجزاء العبارة، فيأتون بعبارات عربية المفردات والقواعد لكنها أعجمية التركيب والنظم».

أما المجامع اللغوية العربية فيمكنها، بالإضافة إلى نشاطها في التعريب، وخاصة تعريب المصطلحات، أن تراقب استعمال هذه المصطلحات في أجهزة الإعلام والمدارس والجامعات، وأن تستمر بتفاعلها المباشر مع المجتمع ومع المؤسسات العلمية في البلاد العربية، لتكون مراكز تخطيط لغوي للمجتمع العربي ومؤسساته، وأن تستمر بتقديم يد العون وتقديم المشورة إلى وزارات التعليم ومختلف الهيئات التي تطلبها. إن ما قدمته تلك المجامع يستحق التقدير، لكن المزيد من العمل مطلوب. كذلك فإن زيادة التنسيق بين هذه المجامع يخفّف الإعادة والتكرار والتناقضات، ويزيد من فعّالية هذه المجامع.

أما تسهيل الاتصال، وبمعناه المطلق، في العالم العربي فليس مدعاة للتكامل العربي وحسب، بل مدعاة للتماسك السياسي والاجتماعي. وتسهيل الاتصال يتم بتطوير أجهزة الاتصال الحديثة، من الشبكات التلفزيونية والفضائية، إلى البث التلفازي والإذاعي الموجه للعالم العربي بأسره والأهم من ذلك إنشاء قواعد المعلومات وشبكات الاتصال الحاسوبي الفضائية؛ كذلك بتسهيل تنقل المواطن العربي من بلد لآخر، وفتح أبواب التبادل ثقافياً

واقتصادياً على مصراعيها. هدف اللغة هو الاتصال؛ ووحدة متكلميها تتم بتسهيل اتصالهم بعضهم ببعض.

ولا شك بأن من أهم الأسباب التي أدّت إلى ازدهار تعلم اللغات الأجنبية في العالم العربي، وبشكل خاص الانجليزية والفرنسية، ما يتعلق بفرص العمل. إذ أن المواطن العربي، يصعب عليه حتى في عقر داره أن يجد عملاً جيداً خاصة في القطاع الخاص، إذا لم يكن يجيد الانجليزية أو الفرنسية. لماذا يعطى المجتمع العربي هذه القيمة للغات الأجنبية على حساب اللغة الأم؟ لماذا تُجعل تلك اللغات علامة الرفعة الاقتصادية والاجتماعية، وتؤثر بذلك باتجاهات الأبناء النفسية نحو تلك اللغات ونحو اللغة العربية بالمقارنة بها؟ فجعل العربية عاملاً أساسياً في التوظيف والترقية يولّد دوافع جديدة للإقبال على تعلّمها وإجادتها، ويخلق تأثيرات نفسية جديدة يحتاجها المجتمع العربي. لا أقصد أن أقلّل التشجيع على تعلّم اللغات الأجنبية، لكن يجب أن تعطى العربية الدور الأساسي في تسيير أمور المجتمع متقدمة بذلك على اللغات الأجنبية دون الغاء لدور هذه اللغات.

يرتبط هذا العامل بعامل آخر وهو ما أسميته «الغربة الحضارية» عند المواطن العربي؛ فبالرغم من الأحداث الجسام التي تعيشها الأمة العربية، وبالرغم مما قاست وتقاسي من جراء تقليد واقتباس الغرب وثقافته وحضارته، إلا اننا إن أردنا ان نصارح أنفسنا وجدنا أن قطاعاً كبيراً من الشباب يقاسي من غربة حضارية مريرة، تتجلى بتهافت الشباب على «الغربنة او التغريب» المتمثلة بالنظر للغرب على أنه النموذج الذي يحتذى كذلك تتجلى هذه الغربة بنظرة المجتمع العربي العالية لمن يجيد إحدى اللغات الغربية، وبتهافت الجميع على استعمال الاصطلاح الأجنبي في الحديث العادي وفي الصحف وأجهزة الإعلام، وهو ما أسماه ابن خلدون في مقدمته تقليد المغلوب للغالب.

ان اللغة العربية تنتعش إذا ما استعملت لغة البحث العلمي عند أبنائها وإذا ما تمكن هؤلاء من القيام بالمزيد من البحث والتأليف والنشر، وخاصة في حقل المعاجم؛ إذ يأسف المثقف العربي أن لا يكون في العربية حتى الآن قاموس واحد بجودة وشمول ووضوح وسهولة استعمال «وبسترن» Webester's في الانكليزية مثلا. كذلك حتى هذه اللحظة لا توجد دائرة معارف واحدة بمستوى دائرة المعارف البريطانية أو الأميركية. لذلك تحتاج العربية إلى مجموعة شاملة واضحة حسنة التصنيف من معاجم المترادفات والمتناقضات

والاستشهادات والأمثال والمواد المرجعية الأخرى. وقد قام السَّلف في كثير من الأحيان بالبحث وحصر المعلومات، وما علينا إلا أن نجدد ونصنف تلك المعلومات ونطبعها.

فتعريب التعليم ما قبل الجامعي، ليس ضرورة ومطلباً قومياً فحسب، إنما هو خدمة حتمية يجب أن تجزى للعربية، ولابنائها الواقعين الآن بين نارين، نار جهلهم بلغتهم، ونار التعلم باللغة الأجنبية التي لا يجيدونها. ليس هناك على وجه الأرض دولة ذات قيمة تدرّس أبناءها بلغة غير لغتهم. فمن البديهيات في التعليم أن الطالب يستوعب بشكل أفضل، ويفكر بشكل أسلم في لغته الأم لا بلغة غريبة عنه، ولا يتم ذلك التعليم الجيد إلا إذا بدأنا بخطوات منظمة للتعريب والاّ بقي الدور الرئيسي في العملية التربوية للغات الأجنبية، وربما قوي ذلك الدور على حساب اللغة الأم وعلى حساب مستويات التعليم المرجوّة. فكيف يمكن أن يكون هناك مصادر علمية بالعربية ما لم يتخرّج جيل عربي تعلَّم بالعربية كي يبحث وينشر بها؟ وينسحب نفس الوضع على التعليم الجامعي أيضاً لماذا لم نبدأ بحملة ترجمة شاملة للكتب المدرسية العلمية؛ وهي بالواقع محصورة العدد وليست بذلك الحجم البالغ الذي يصوره بها أعداء التعريب؟ إذا أخذنا الكيمياء مثلاً، فإنك تجد كتاباً واحداً مشهوراً عالمياً ككتاب جامعي مدرسي، ويستعمل في مستوى معين ـ كالسنة الأولى أو الثانية مثلاً ـ وفي كثير من الأحيان نجد أن هذا الكتاب قد أعيدت طباعته مرات ومرات، وبتعديلات طفيفة تستطيع إضافتها للترجمة سنوياً. إن الكلام سيطول عن التعريب، وسنبقى نعاني المشاكل نفسها التي نتحدث عنها ما لم نبدأ وبالحال بتحضير جيل يتعلم في المدرسة وفي الجامعة وفي أعقد العلوم بالعربية. والتجربة السورية، وكذلك التجربة العراقية الجديدة جديرتان بالدراسة.

في ختام هذا البحث، لا بد من التركيز على أن أية أراء أو مواقف تبقى عديمة الفائدة إن لم تكن مرتكزة على البحث العلمي لتقرير أفضل الحلول لمشاكل الإزدواجية ولغة التدريس. ومن هذه الدراسات ما يحاول أن يحدد مدى قرب العربية الفصحى من متعلميها وابنائها والاتجاهات عندهم نحوها ونحو استعمالاتها الاجتماعية والاعلامية والأدبية والتربوية. ويتبع هذه الدراسات العمل على إعادة الاعتبار للغة العربية لغة رسمية وشعبية للعالم العربي بالفعل لا بالاسم.

يقول العقاد في مقالة له عن الفصحى والعامية، وفي ما يقول عمق بالتفكير، وملخص لكثير مما قيل ويقال عن هذا الموضوع، لولا بعض كلام عن العامية تنقصه العلمية (كقلة القواعد):

«إن في كل أمة لغة كتابة ولغة حديث، وفي كل أمة لهجة تهذيب ولهجة ابتذال، وفي كل أمة كلام له قواعد وأصول، وكلام لا قواعد له ولا أصول. وسيظل الحال على هذا ما بقيت لغة، وما بقي ناس يتمايزون في المدارك والأذواق. فلن يأتي اليوم الذي يُكتب فيه فردوس ملتون بلغة العامل الانجليزي، وفلسفة كانت بلغة الزارع الألماني، ولن يأتي اليوم الذي تستوعب فيه قوالب السوق كل ما يخطر على قرائح العبقريين، ويختلج في ضمائر النفوس، ويتردد في نوابغ الأذهان؛ فالفصيحة باقية والعامية باقية مدى الزمان!»

ويقول المستشرق الالماني يوهان فك في ختام كتابه العربية: **دراسات في اللغة واللهجات والأساليب.**

«وأن العربية الفصحى لتدين حتى يومنا هذا بمركزها العالمي أساسياً لهذه الحقيقة الثابتة، وهي انها قد قامت في جميع البلدان العربية، وما عداها من الأقاليم الداخلية في المحيط الإسلامي، رمزاً لغوياً لوحدة عالم الإسلام في الثقافة والمدنية.

لقد برهن جبروت التراث العربي التالد الخالد، على أنه أقوى من كل محاولة يقصد بها إلى زحزحة العربية الفصحى عن مقامها المسيطر.

وإذا صدقت البوادر، ولم تخطئ الدلائل، فستحتفظ أيضاً بهذا المقام العتيد من حيث كونها لغة المدنية الإسلامية، ما بقيت هناك مدنية إسلامية».

المراجع العربية

- ابن جني: **الخصائص**، تحقيق محمد علي النجار، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٨.

- ابن خلدون: **مقدمة ابن خلدون**، ط ٦، بيروت، دار القلم، ١٩٨٦.

- أنيس، ابراهيم: **مستقبل اللغة العربية**، القاهرة، [د.ن.]، ١٩٦٠.

- بدوي، السعيد: **مستويات العربية المعاصرة في مصر**، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٥.

- الجندي، أنور: **الفصحى لغة القرآن**، بيروت، دار الكتاب اللبناني، [د.ت.].

- حجازي، محمود فهمي: **اللغة العربية عبر القرون**، القاهرة، [د.ن.، د.ت.].

- حسين، طه: **مستقبل الثقافة في مصر**، القاهرة، دار المعارف، [د.ت.].

- حسين، محمد: **الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر**، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٧٢.

- الحصري، ساطع: **آراء وأحاديث في القومية العربية**، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٥.

- ــــــــــ: **حول القومية**، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٧.

- خليفة، عبد الكريم: **اللغة العربية والتعريب في العصر الحديث**، عمان، مجمع اللغة العربية الأردني، ١٩٨٧.

- الزغول، محمد راجي: «ازدواجية اللغة: نظرة في حاضر العربية وتطلع نحو مستقبلها»، **مجلة مجمع اللغة العربية الأردني**، العددان ٩ - ١٠ (١٩٨٠).

- الزغول، محمد ورياض فايز حسين: «لغة التعليم العالي في الجامعات العربية: دور الانجليزية في سياق التعريب»، **مجلة مجمع اللغة العربية الأردني**، العدد٣٣ (١٩٨٧).

- السامرائي، ابراهيم: **تنمية اللغة العربية في العصر الحديث**، [د.م.]، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ١٩٧٣.

- سعيد، نفّوسة: **تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر**، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٠.

- السيد، أحمد لطفي: **المنتخبات**، القاهرة، [د. ن. ، د. ت.].

- السيوطي: **المزهر**، تحقيق محمد مولى وعلي الجاوي، بيروت، المكتبة العصرية، ١٩٨٦.

- الصالح، صبحي: **دراسات في فقه اللغة**، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٧٨ .

- العايد، أحمد: «اللغة العربية»، **اللسان العربي**، العدد ٨ (١٩٦٨) .

- العقاد، عباس محمود: **ساعات بين الكتب**، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٨ .

- فريحة، أنيس: **نحو عربية ميسرة**، بيروت، دار الثقافة، ١٩٥٥ .

- فك، يوهان: **العربية: دراسات في اللغة واللهجات والأساليب**، ترجمة رمضان عبد التواب، القاهرة، مكتبة الخانجي، [د. ت.].

- فهمي، مصطفى: **النظرية العامة للقومية العربية**، الاسكندرية، منشأة المعارف، ١٩٦٦.

- مبارك، مازن: **نحو وعي لغوي**، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٥ .

- ناصيف، علي: **من قضايا اللغة والنحو**، القاهرة، [د.ن.]، ١٩٥٧ .

- نجا، ابراهيم: **اللهجات العربية**، القاهرة، مطبعة سعادة، ١٩٧٤

المراجع الأجنبية

-Abdel-Malek, Zaki: "The Influence of Diglossia on the Novels of Yusif Al-Sibawi", **Journal of Arabic Literature** (1972), 132-141.

-Abou-Seida, Abdelrahman: "Diglossia in Egyptian Arabic: Prolegomena to a Pan-Arabic Sociolinguistic Study", (Ph.D. Dissertation, University of Texas at Austin, 1971).

-Alrabaa, Sami:"Diglossia in the Classroom: The Arabic Case", **Anthropological Linguistics,** Vol. 28, No.1 (1986), 73-78.

-Ayari, Salah: "Diglossia and Illiteracy in the Arab World", **Language, Culture and Curriculum,** Vol. 9, No. 3 (1996), 243-53.

-Al-Toma, Salih J.: "Language Education in Arab Countries and the Role of the Academics", in: Fishman, J. (ed.): **Advances in Language Planning**, Hague, Mouton, 1974.

-Bateson, Mary C.: **Arabic Language Handbook,** Washington, DC, Center for Applied Linguistics, 1967.

-Bezirgan, Najm: "Language and Reality in the Arab World", in: Said, E. and F. Suleiman (eds.): **The Arabs Today: Alternatives for Tomorrow**, Columbus, Forum Associates, Inc., 1973.

-Blanc, Haim: "Stylistic Variation in Spoken Arabic: A Sample of Interdialectal Conversation", in: Ferguson, Charles (ed.): **Contributions to Arabic Linguistics,** Cambridge, Harvard University Press,1960.

-Cachia, P.J.: "The Use of the Colloquial in Modern Arabic Literature", **Journal of the American Oriental Society**,Vol. 87, No. 1(1976).

-Chejne, Anwar: **The Arabic Language: Its Role in History,** Minneapolis, University of Minnesota Press, 1969.

-Ferguson, Charles A.: "Diglossia", **Word,** Vol. 15 (1959), 325-40.

- _____ : "Myths about Arabic", in: Fishman, J. (ed.): **Readings on the Sociology of Language**, Hague, Mouton, 1968.

-Fishman, Joshua : **The Sociology of Language: An Interdisciplinary Social Approach to Language in Society**, Rowly, MA, Newbury House, 1972.

-Gumperz, John: "Types of Linguistics Communities", **Anthropological Linguistics**, Vol. 4, No.1(1962), 28-40.

-Hudson, Alan: "Diglossia: A Bibliographic Review", **Language in Society**, Vol. 21, No. 4 (1992), 611-675.

-Hussein, R. and M. R. Zughoul: "Lexical Interference in Journalistic Arabic in Jordan", **Language Sciences**, Vol. 15, No. 3 (1993), 239-254.

-Hymes, Dell: "Introduction to Social Structures and Speech Community", in Hymes, Dell (ed.): **Language in Culture and Society**, New York, Harper and Row Publishers, 1964, 385-390.

-Inayatullah, S.: "Arabic as the Religious Language of the Moslem", **Muslim World**, Vol. 29, No. 3(1949), 241-245.

-Kaye, Alan S.: "Remarks on Diglossia in Arabic: Well Defined vs. iII Defined", **Linguistics,** Vol. 81(1972), 32-43.

-Kelman, Herbert: "Language as an Aid and Barrier to Involvement in the National System", in: Rubin, J. and B. Jernudd (eds.): **Can Language be Planned? Sociolinguistic Theory and Practice For Developing Nations**, Honolulu, University Press, 1975.

-Marçais, William: "La Diglossie Arabe", **L'Enseignement public**, Vol. 97, No. 40 (1930).

-Musa, Salama: "Arabic Language Problems", **Middle East Affairs,** Vol. 6, No. 41 (1955).

-Patai, Raphael: **The Arab Mind,** New York, Charles Cribners and Sons, 1973.

-Schiffman, Harold: "The Balance of Power in Multiglossic Languages: Implications for Language Shift", **International Journal of the Sociology of Language**, Vol. 103 (1993), 115-148.

-Shaaban, Kassim: "Code-Switching in the Speech of Educated Arabs", The **Journal of the Linguistic Association of the Southwest,** Vol.3, No. 1 (1978), 7-19.

-Shouby, Eli: "The Influence of the Arabic Language on Psychology of the Arabs", **Middle East Journal** (Summer 1951).

-Sotiropoulous, Dimitri: "Diglossia and the National Language Question in Modern Greece", **Linguistics**, Vol. 197 (1977), 5-31.

-Stetkevych, Jaroslav: **The Modern Arabic Literary Language: Lexical and Stylistic Development**, Chicago, University of Chicago Press, 1970.

-Teyrmour, Mahmoud: "The Battle Between the Arab Languages in Modern Egyptian Literature", **Asian Review**, Vol. 28 (1932), 635-40.

-Wexler, P.: "Diglossia, Language Standardization and Purism", **Lingua**, Vol. 7 (1971).

-Youssi, Abderrahim: "The Moroccan Triglossia: Facts and Implications", **International Journal of the Sociology of Language** (1995).

-Yorkey, Richard: "Practical EFL Techniques for Teaching Arabic Speaking Students", in Alatis, J. and R. Crymes (eds.): **The Human Factors in ESL**, Washington, DC, TESOL, 1971.

-Zughoul, Muhammad Raji: "Diglossia in Arabic: Investigating Solutions", **Anthropological Linguistics**,Vol. 22, No. 5 (1980), 201-17.

-_____: "Diglossia in Literary Translation: Accommodation into Translation Theory", paper presented at: The 3rd ITI International Colloqium on Literary Translation: Translation and the Community, University of Sheffield, UK, 1998.

-_____: "The Language of Higher Education in the Arab World: Conflicts, Challenges and Accommodation", paper presented at: The Selmun Seminar: Innovative Strategies in Meeting Educational Challenges In the Mediterranean, held in Malta, June 13-19, 1999.

-Zughoul, M. R. and R. Hussein: "English for Higher Education in the Arab World: A Case Study of Needs Analysis at Yarmouk University", **ESP Journal**, Vol. 4 (1985), 133-152.